Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منشورات جامعة تشرين

نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتابعة وتاريخه

الجزء الثاني

نعيم اليمصي

طبع في
الكتب والمطبوعات بجامعة حلب
ب اذن خاص من جامعة تشرين

Bibliotheca Alexa
01369971

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة تشرين باللاذقية

٨٢٠٠٠٠٠
٨٢١٣٥٦
ن
٧٥

نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتابعة وتاريخه

نعيم الحمصي

الجزء الثاني

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ
١٩٨١ - ١٩٨٢ م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النثـــر

مكانتـــه وموضوعاتـــه :

يخيل الى كثيرين أن النثر في هذه الحقبة ، بما حمل من أوزار الصناعتين البيانية والبديعية المتكلفتين تكلفاً شديداً ، قد عجز عن التعبير عن وصف الحالة السياسية ، وتطلعات الأمة ونزعاتها وأوضاعها وآلامها وأمراضها ، ولا سيما النثر الديواني منه • والواقع أنه قام بمهمته قياماً جيداً وتعدى القدرة على وصف الواقع الى القدرة على توجيه السياسة العليا وتقوية المعنويات والحث على الجهاد والاعداد للحرب في سبيل طرد المغتصبين • وذلك يتجلى في فنونه المختلفة ، من خطابة سياسية وحربية ودينية ، ومن رسائل سلطانية واخوانية ووجدانية ، ومن أدب وصفي مختلف الانواع ، وبما ألف في الجهاد وفضائل المدن والسياسة والاخلاق والقصص والمقامات والتاريخ والسير والمناقب ووصف أحوال الأعداء •

وتناول الادب موضوعات من صميم الحياة ، لم يكن يتناولها الادب القديم ، كوصف الحمامات العـــامة وذم بعض العادات الشاذة في المجتمع ، والسخرية بالاوضاع المشينة ونقد موظفي الدولة كالعاملين في الدواوين والمكوس •

وألفت كتب في الادب منها ما دار حول موضوع واحد ومنها ما شمل عدة موضوعات ومنها ما شرح كتباً سابقة •

ونشأ أدب شعبي من صميم الشعب يتذوقه العامة والخاصة ، منه مقامات ومنه قصص ، ومنه ما يشبه التمثيليات ، وكان يعد بذرة صالحة لها لو ساعدت ظروف الحياة من سياسية واجتماعية وفنية ، كتمثيليات خيال الظل المســـماة بالبابات •

الخطـــابة

ازدهرت الخطابة في عهد النبي والخلفاء الراشدين والعهد الأموي وبداية العهد العباسي ، ويمكن أن نميز فيها النـــوع الديني والنوع الحربي والنوع السياسي • ولكل من هذه الانواع ميدانه ويمكن أن نلحق بهذه الانواع المناظرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمواعظ في المساجد والقصص الديني ، وإن كان لهذه الثلاث سمات تميزها عن الخطـابة .

كانت الدولة الفاطمية تعنى بالخطابة. وكان الخليفة نفسه يخطب أحياناً في مساجد القاهرة والفسطاط من انشائه أو مما يهيئه له ديوان الانشاء ، وكان يختار للخطابة في المساجد الكبيرة أشهر العلماء والقضاة ويمدح الرجل فيقال هو من بيت رياسة وخطابة ، واستمرت العناية بالخطابة في العهدين الايوبي والمملوكي .

وكان يشترط في الخطيب أن يكون فصيحاً حافظاً للقرآن وكان الفاطميون يشترطون أحياناً أن يكون من الأشراف .

ومن النصوص الدالة على ما كان يراعى في الخطيب من صفات حين تعيينه ، التقليد الذي تعين فيه قاضي القضاة كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٠ هـ) خطيباً لأحد الجوامع الكبرى وأرجح أنه جامع دمشق ، وقد جاء فيـه :

« ... لأنه الإمام الذي لو تقدّم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد والعارف الذي بلغ بولايته مريد الفضل غاية المراد ، والعالم الذي وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها في الخارج صالح العمل ، واتبع سنن الكتاب والسنة ، فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ، والمحقق الذي وجد الى الحقيقة أكمل مجاز ، والمفوه الذي بلغ من البلاغة في كلام البشر حـدّ الاعجاز ، إن خطب شنّف بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغرر فرائده الأسجاع ، واهتزت أعواد المنابر طرباً لكلمه الطيب وروى أوام القلوب سحّ فضله الصيّب ... ولو نظر الملكان هاروت وماروت ما ملكه من كتابته الساحرة لأقرّا أنّه السحر الحلال ... فليباشر هذه الخطابة مباشرة ترشف منها كؤوس كلمه الأسماع . وليكشف لها عـن وجوه فضائله القناع ، ولينثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسـامع ... وليطرب بمواصيل أسجاعه القاطعة بفضائله المكملة ... ولينفق على الجمع يوم الجمعة بما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التي أخملت ذكـر (قس) و (سحبان وائل) » .

« صبح الأعشى ٢ ص ١٤٤ و ٤٤٠ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يتوالى الخطباء من أسرة واحدة كما توالوا في أسرة ابن دقيق العيد[1] (الطالع السعيد ص ٢٩٦) . وكان المسجد مكان الخطبة في أيام الجمع وقد يجمع الناس فيه حين يحدث أمر عظيم يستدعي الخطابة كما حدث حين سقطت دمياط في أيدي الفرنجة وتحرّك الافرنج منها بعد موت الملك الصالح أيّوب يريدون الاستيلاء على مصر فالقيت خطبة ألهبت حماسة الناس ودفعتهم الى الجهاد . وهي مضمون كتاب أرسل اليهم بدىء بالآية الكريمة : « انفِروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير" لكم إن كنتم تعلمون » .

« المقريزي ، جـ ١ : ٣٥٦ »

وقد يخطب بعض العلماء الجريئين منتقداً أعمال الحاكم مصرحاً بمخالفتها للدين كما فعل عز الدين بن عبد السلام[2] خطيب مسجد دمشق حين انتقد الملك الصالح لتسليمه صفد والشقيف للفرنج ولم يبال بالعزل والسجن .

« فوات الوفيات ١ : ٢٨٨ »

وكان يدعى لأولى الأمر في الخطبة الثانية من خطب الجمعة وفي خطب العيدين وغيرها من الخطب .

وفي العهد الفاطمي كان يدعى في خطبة الجمعة لوزير الحافظ الفاطمي أحمد ابن الافضل أمير الجيوش فيوصف بهذه الصفات : ناصر أمام الحق ، هادي العصاة الى اتباع الحق ، مولى الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم

وكان يدعي لنور الدين محمود فيوصف بهذه الصفات :

« اللهم ... اصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي ابن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » .

وكان يدعى لصلاح الدين فيوصف بهذه الصفات :

---

(١) اشتهرت في العهد المملوكي التركي وراسها موسى بن علي (ت ٦٨٥ هـ) .

(٢) مخضرم بين العهدين الأيوبي والمملوكي . وقد تحدثنا عنه بين نوابغ العلماء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« اللهم وأكرم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك اللامع والمحامي عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع السيد الأجـل الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبـدة الصلبان »[٢] .

وينبين لنا من موازنة هذه الأدعية بعضها ببعض كيف اختلف الدعاء باختلاف حال المدعو له من الأمة ومن الأعداء . فقد دعي لوزير الخليفة الفاطمي على أنه ناصر مولى الأمم وناصر امام الحق وذلك يناسب الدعوة الفاطمية السياسية ، ودعي لنور الدين دعاء يناسب جهاده لطرد الاعداء وتفانيه في نصرة الدين في وقت لم ينل فيه المسلمون نصراً حاسماً على الصليبيين ، ودعي لصلاح الدين دعاء يناسب انتصاره الحاسم عليهم فهو سيف الاسلام القاطع وشهابه اللامع .

وقد ألّف كثير من الخطباء في هذه الحقبة دواوين للخطب . منهم في العهد الفاطمي ــ الزنكي يحيى بن سلامة الحصكفي (ت ٥٥١ هـ) ، وفي العهد الأيوبي شميم الحلّي (٦٠١ هـ) صاحب كتاب « نتائج الإخلاص » ، ويحيى بن معطي الزواوي (٦٢٨ هـ) ومحمد بن هبة الله البرمكي (٦٢٨ هـ) ؟[٢] ، وأبو محمد القاسم بن القاسم الواسطي (٦٢٦ هـ) ومنهم في العهد المملوكي التركي أحمد بن المبارك بن نوفل (٦٦٤ هـ) وابن المنيّر السكندري (٦٨٣ هـ) ، وابن دقيق العيد (٦٨٥ هـ) ، وقد ألّف هؤلاء كلّهم دواوين خطب وقد سبقهم الى ذلك ابن نباتة معاصر المتنبي .

« عن الحياة الادبية ، د. بدوي ص ٣٨٠ »

وكان لخطب ابن نباتة المعاصر للمتنبي وسيف الدولة ، قيمة عظيمة حينئذ فقد كان الخطباء يسيرون على غرارها حتى قال ابن الاثير « بأنها عكاز أهل هذا

---

(١) راجع بحث الخطابة في « الحركة الادبية زمن الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزه » .

(٢) لعلّه محمد بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي من بني العديم ، (ت ٦٢٨ هـ) ولكن من ابن جاء لهذا لقب البرمكي ؟ ولعلّه غيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزمان » وكانت تميل الى السجع ، بل اننا نراه يلتزم حرف الباء في فواصل خطبة طويلة .

« الحياة الادبية ٣٣٥ وما بعدها »

ومن الخطب التي كانت تكتب خطبة الزواج . ومن ذلك خطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على بنت الامير قلاوون الألفي في العهد المملوكي التركي ومنها :

« الحمدُ لله موفّق الآمال لأسعد حَرَكة ، ومصدّقِ الفأل لمن جعل عنده أعظمَ بركة ، ومحقّقِ الإقبال لمن نسيبُه سلطانُه ، وصهرُه ملِكُه ، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميّز اقدارَهم باحتفاء تأهّله حتى حازوا نعيماً ومُلْكاً كبيراً ، وأفرد فخارَهم بتقريبه حتى أفاد شمسَ آمالهم ضياءً ، وزاد قمرَها نوراً ... » .

« القلقشندي ، صبح الأعشى ١٤ : ٣٠٠ »

وظهرت في هذا العصر الخطب التدريسية وهي الخطب التي كان يلقيها العلماء ، والفقهاء منهم بخاصة ، في مفتتح مواسم الدراسة في المدارس أو المساجد التي يكلفون بالتدريس فيها .

وكان الخطباء فريقين : فريقاً يؤثر السجع على طريقة ابن نباتة ، وفريقاً يتجنبه ويؤثر الاسلوب الحر كعز الدين بن عبد السلام . ولم يصل الينا شيء من خطبه . وانما اتّبع الاسلوب الحر لأن خطب السلف كانت خالية من السجع الا ما جاء عفو الخاطر وكان أسلوبه حراً كنفسه في عصر لم يستطع فيه أكثر الخطباء أن يتحرر تحرره . ومواقفه معروفة مشهودة .

اشتهر من خطباء هذه العهود ابراهيم بن منصور العراقي (ت ٥٩٦ هـ) امام الجامع العتيق وخطيبه ، وابنه محمد الذي ألّف ديوان خطب اشتهر ، من العهد الفاطمي ــ الزنكي ، وابن زكي الدين صاحب الخطبة امام صلاح الدين حين فتح القدس وشمس الدين بن أبي المغضاء الذي جعله صلاح الدين رسوله الى الخليفة ، من العهد الايوبي ، وبنو العديم الذين تعاقبوا على القضاء والخطابة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنهم الكمال بن العديم وقد خطب في جامع دمشق ، وابن دقيق العيد العالم الاديب الصوفي ، وابن المنير الاسكندري عالم الاسكندرية وخطيبها • وعز الدين ابن عبد السلام ، الذي كان جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، والذي استنّ في خطابته سنناً غير ترك السجع ، منها انه اجتنب الثناء على الملوك واستبدل به الدعاء لهم ، ومنها أنـه أبطل دق السيف على المنبر[1] • وهؤلاء الأخيرون من العهد المملوكي التركي • ولم نعرف بعد خطباء مشهورين في العهد المملوكي الجركسي •

مثال من الخطب الدينية ذات الطابع النضالي :

كان خطباء المساجد في هذه الحقبة يحضّون الناس على الجهاد ويبينون لهم ضرورته وواجباتهم في دفع الاعداء من حيث بذل النفس والولد والمال والتضحية بكل شيء في سبيل النصر وطرد الاعداء •

وكان صلاح الدين يتوخى أن تحدث معاركه في وقت الصلاة من أيام الجمع تبرّكاً بدعاء الخطباء وتفاؤلا بالنصر (النوادر السلطانية ابن شداد ص ٦١) • ولعلّه كان يستفيد حين يبدأ الهجوم في هـذا الوقت من تذكـير الجند بواجبهم المقدس في الجهاد ، وانهم في يوم جمعة ولولا العدو الغاصب لكانوا يؤدون الصلاة في الجوامع بين أهليهم •

وللخطبة الدينية نظام مأثور فالخطيب يبدؤها بحمد الله ثم يلقي خطبته الاولى في الموضوع الذي يريده ويجلس جلسة قصيرة ثم يقوم فيخطب الخطبة الثانية فيدعو فيها للخليفة ثم للملك والسلطان ثم لسائر المسلمين •

ومن أشهر الخطباء زمن صلاح الدين محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق وهو الذي اختاره صلاح الدين من بين خطباء عدّة رغبوا في أن يلقوا خطبة الجمعة بالمسجد الاقصى في ذلك اليوم الخالد • وهو أبو المعالي محيي الدين محمد بن علي القرشي (٥٥٠ ــ ٥٩٨ هـ) •

---

(١) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١١٩ في المتن والحاشية . د. احمد أحمد بدوي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صعد المنبر وهو متشح بالزيّ العبّاسي الاسود شعار بني العباس ، وبدأ خطبته بآيات بيّنات في حمد الله حمداً مطولاً ثم ألقى خطبته الأولى التي دارت حول الفتح ، وشكرِ الله عليه ، وواجباتِ الجند ...

وفي الخطبة الثانية دعا للخليفة الناصر لدين الله ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وقد أعجب القدماء بها اعجاباً شديداً .

ونكتفي من هذه الخطبة بما يلي :

« أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنريَه من آياتنا »[1] .

أليس هو البيت الذي عظّمته المِلل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليتْ فيه الكتبُ الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ .

أليس هو البيت أمسك اللهُ عزّ وجل ، فيه الشمسَ على يوشعَ لأجله أن تغرُب ، وباعد من خطواتها ليتيسّر فتحُها ويقرب ؟

أليس هو البيتَ الذي أمر الله تعالى موسى أنْ يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟ .

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل ، وقد فضّلهم على العالَمين ، ووفّقكم لما خذل فيه مَنْ قبلَكم من الأمم الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضتْه كان وقد عن سوف وحتى . فلْيهنكم أنّ الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم ، بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم ، جنده ، وشكركم الملائكةُ المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طِيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمَطْتم فيه عن طرقه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاكَ السموات ويصلّي عليكم الصلوات المباركات .

---

(١) الاسراء ١٧ ، ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاحفظوا ، رحمكم الله ، هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسّك بها سلم ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقف الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا . وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حقّ جهاده ، وبيعوا أنفسكم عبادَ الله ، في رضاه ، إذْ جعلكم من خير عباده وإيّاكم أن يستذلّكمُ الشيطانُ ، وأن يتداخلكم الطغيانُ ، فيُخيّل اليكم أن هذا النصرَ بسيوفكم الحِداد ، وبخيولكم الجِياد ، وبجِلادكم في مواضع الجلاد ، لا ، والله ، « ما النصرُ إلاّ من عند الله ، إنّ الله عزيز حكيم »[1] واحذروا ، عبادَ الله ، بعد ان شرّفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنْح الجزيل ، وخصّكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيراً من مَناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من مَعاصيه ، فتكونوا « كالتي نقضت غزلَها من بَعد قوةٍ أنكاثا »[2] و « الذي آتيناه آياتِنا ، فانسلخ منها فأتْبعَه الشيطانُ فكان من الغاوين »[3] .

والجهادَ الجهادَ ، فهو أفضلُ عباداتِكم ، وأشرفُ عاداتِكم ، انصروا اللهَ ينصرْكم ، اذكروا الله كثيراً يذكرْكم ، اشكروا الله يزِدْكم ، ويشكرْكم ، جِدّوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقيّة الأرض التي أغضبتِ اللهَ ورسولَه واقْطعوا فروعَ الكفر ، واجتثّوا أصولَه ، فقد نادت الأيامُ بالثاراتِ الإسلامية والملّة المحمدية . الله أكبر . فتَح اللهُ ونصَر ، وغلَب وقهَر ، وأذلّ اللهُ مَن كفر ، واعلموا ، رحمكم الله ، أنّ هذه فرصةٌ فانتهزوها ، وفريسةٌ فناجِزوها ومُهِمّة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسَيِّروا اليها سرايا عزَماتِكم وجهّزوها فالأمور بأواخرها ، والمكاسبُ بذخائرها ، فقد أظفركمُ اللهُ بهذا العدوّ المخذول وهم مثلُكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالةِ الواحدِ منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلِبوا مائتين » .

---

(١) الأنفال ٨ ، ١٠

(٢) النحل ١٦ ، ٩٢

(٣) الأعراف ٧ ، ١٧٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعاننا الله وإيّاكم على اتّباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيّدنا ، معشرَ المسلمين ، بنصرٍ مِن عنده « إنْ ينْصركُم اللهُ فلا غالبَ لكم ، وإنْ يخذلْكم فمن ذا الذي ينصرُكم مِن بعدِه » .

« ابن واصل ، مفرّج الكروب ٢ : ٢١٨ ــ ٢٢٨ ، وأبو شامة ، الروضتين ، جـ ٢ : ١١٠ ، ووفيات الاعيان ٣ : ٣٦٥ ــ ٣٧١ »

هذا وقد حطب الخطيب يومئذ على المنبر الذي أنشأه نور الدين زنكي لبيت المقدس قبل فتحه بعشرين سنة ، وعُدّ ذلك كرامةً لنور الدين الذي كان قد صمّم على فتح القدس وسائر المدن المحتلة ، ولكن الموت لم يمهلْه وكان قد رأى بفراسته أنّ النصرَ قريبٌ وأنّ القدسَ ستُفتحُ وقد دعا الناس يومئذ له بالرحمة ولصلاح الدين بالنصر .

كلمة في هذه الخطبة كاملة لتعطي صورة عما حذفناه منها :

هذه الخطبة دينية قومية ، ونعني بقومية هنا أنها تمثل نضال الامة ضد أعدائها الغاصبين . وهي تنقسم شكلا الى قسمين كجميع الخطب الدينية : الخطبة الاولى والخطبة الثانية وبينهما قعدة استراحة قصيرة .

والخطبة الأولى تنقسم الى مقدمة ، وعرض ، وخاتمة .

آ ــ المقدمـــة :

١ ــ بدأ المقدمة بعدة آيات من القرآن الكريم في حمد الله على نعمه وهدايته وبينها آية تنذر من يقولون بأن الله قد اتّخذ ولدا ، وانما جعل الآيات في بداية المقدمة ، موافقةً لأصول الخطابة الدينية من إيراد الآيات فيها ، ولخلق جوٍّ من الخشوع والقداسة بين المستمعين ، ولشقّ الطريق الى ما يريد قوله بعد .

٢ ــ ثم يحمد الله بجمل من صياغته على ما وهب من نصر على الاعداء وقهر لهم واعزاز لدينه وأنصاره وتطهير بيت المقدس من أوضاره . وهو يمهد بذلك لما سيفصل فيه الكلام بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ ثم يأتي بالشهادة على وحدانية الله ورسالة النبي ذاكراً عروجه الى السماء من بيت القدس ، مشيراً بذلك الى كرامة هذا البلد في الدين الاسلامي ولدى المسلمين وهو يمهد بذلك لما سيفيض فيه بعدُ حول هذا المعنى .

٤ ــ ثم يصلي على النبي والخلفاء الراشدين مشيراً بذلك الى قيمة الانتصار على الشرك والى أنّ عمر هو أول من أزال من البيت المقدس شعار الصلبان والى أن صلاح الدين فعل مثله فهو يقاس اليه .

وكانت غاية الخطيب من هذه المقدمة اعداد أذهان المستمعين لما سيأتي في عرض الخطبة .

ب ــ عرض الخطبـــة :

١ ــ ينتقل الخطيب بعد المقدمة الى تهنئة الناس بهذا النصر الذي رجع فيه البيت المنشود الى أهله من أيدي الصليبيين الضالين بعد مئة سنة من الاحتلال ، وتطهر من رجسهم .

٢ ــ ثم يشيد الخطيب بمكارم بيت المقدس ومكانته لدى الأديان كلها مبيناً أن المسيح نبي وليس إلهاً وأنه عبد لله وليس ولده .

٣ ــ ثم يشيد بالفاتحين ذاكراً بأن الله كرّمهم بهذا الفتح واختصهم به تشريفاً لهم . ويقارن الفتح بأعظم الفتوحات الاسلامية السابقة ، تاركاً للفكر أن يستوحي أن صلاح الدين ندّ لهؤلاء الفاتحين الاوائل .

٤ ــ ثم يعتدّ الفتح نعمة على الفاتحين وليس فضلا لهم . لإيثار الله إياهم بمكرمته . وهذه لفتة بارعة من الخطيب فيها فطنة يمهّد بها لما سينصحهم به بعد من عدم الغرور .

ومن خلال كلامه نراه يخلع القداسة على الفتح ويجعل الفرحة به تعم السماء والارض والملائكة والنبيين .

٥ ــ ثم يعود الى الاشادة بفضائل بيت المقدس معتمداً الى حوادث من تاريخ الاديان السماوية الثلاثة ، مشيراً بذلك الى قيمة هذه المدينة عندها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ ــ ثم يوازن بين اقدام صلاح الدين وجنده ونكوص غيرهم مختصاً بني اسرائيل الذين عصوا ربهم ونبيهم ونكصوا عن الجهاد فعوقبوا بالتيه .

٧ ــ ثم يهنيء الجند بأنهم أصبحوا جند الله بتحريرهم بيت المقدس وتطهيره بعد أن كانوا جنداً لأهوائهم .

٨ ــ ثم ينصحهم بألا يغتروا بهذا النصر فيتقاعسوا عن تحرير بقية البلاد وفي ذلك توجيه جيد الى متابعة النضال وإتمام تنفيذ الخطة الجهادية وينصحهم كذلك بألا يفسدهم النصر فيظنوا أنهم انتصروا بسيوفهم وخيولهم وجهادهم فما النصر الا من عند الله . وهو لا يريد بذلك أن ينكر عليهم جهدهم الطيب وجهادهم المقدس ، وانما يريد أن يجنبهم الغرور .

٩ ــ ثم يحذرهم من الادلال بنصرهم وأستثماره في المعاصي واغضاب الله فانهم حينئذ يهدمون ما قد بنوا من مجد .

١٠ ــ ثم يعود فيحثهم على الجهاد واستئصال شأفة الاعداء والأخذ بالثأر ، فهذه فكرة تشغله لذلك يلح عليها ، ثم يكبر الله بحماسة على هذا النصر ويستحثّ هممهم الى انتصارات قادمة ، فقد انتصروا والعدوّ أكثرُ منهم أو مثلهم عدداً فالآن قد أصبحوا عشرين ضعفاً منه فما عليهم الا أن ينتصروا وقد وعد الله الصابرين بأن تغلب المئة منهم مئتين من عدوهم .

والاقسام من الخامس حتى العاشر تكوّن الجزء الذي أوردناه من الخطبة .

جـ ــ خاتمة الخطبـــة :

ثم يأتي بخاتمة الخطبة الأولى فيدعو للجميع بالتوفيق الى طاعة الله والنصر فان الناصر والخاذل هو الله وحده .

د ــ الخطبة الثانية بعـد الاستراحة :

نستطيع أن نعد الخطبة الثانية تلخيصاً للأولى بطريق الدعاء الى الله . فهو بعد أن يدعو بالصلاة على النبي والصحابة والتابعين وللخليفة العباسي في بغداد ــ وهذا القسم غير مذكور فيما بين أيدينا من الخطبة ــ يدعو لصلاح الدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البقاء مشيداً بجهاده وأعماله الباهرة ، بأن يبسط الله دولته ويقوي حوزته وينشر حوزته ثم يدعو له بأن يفتح أداني الارض وأقاصيها لخلصها من الشرك وفي هذا الدعاء حثّ وتوجه الى اتمام الخطه الجهادية الحربية ، ثم يدعو على الكفار الذل ، ثم يدعو لصلاح الدين بحفظ الملك في ذريته وأهله ثم بأن يكون ثوابه الجنة فهي الملك الابدي الذي لا ينفد .

هذه الخطبة موفوره المشاعر صادقتها يعبر عنها الخطيب في أكثر من مكان من خطبته فهو فرح بالنصر واسترداد بيت المقدس معتزّ بصلاح الدين والجند وعز الدين والأمة . شامت بما أصاب الاعداء ، خائف على المنتصرين من الغرور والاهمال ، متطلع الى فتوحات جديدة ، لأنه لا يزال شاعراً بالخطر .

وهو غني بالافكار فقد استوفى ما يجب ان يقال بهذه المناسبة ، ولم ينس التوجيه والاعداد للمستقبل . وقد رتب خطبته جيداً في فسميها وجعل لها مقدمة وعرضاً وخاتمة وأعاد عنصرين من الافكار الرئيسية مرّتين وهما الاشادة ببيت المقدس ، والدعوة الى متابعة الجهاد لتحرير بقية البلاد ، وكانت الاعادة :

١ ـ لأن الفكرتين تلحّان عليه فهما أهمّ ما في الخطبة ولا سيما الفكرة الثانيـة .

٢ ـ ثم لأنّ طبيعة تتابع الكلام قد استدعت منه الإعاده . ونلاحظ أنه جدّد صياغة الفكرتين حين أعادهما . وقد لخّص الافكار جميعها وعلّقنا عليها . ولم يلجأ الخطيب الى الخيال البياني فلم يكثر من التشابيه والاستعارات والكنايات والمجازات ، واعتمد على الحقيقة لأنها في ذاتها رائعة مثيرة وقد عوض الشـاعر عن الخيال بالاكثار من الاشارات التاريخية الدينية المستمدة من الاديان السماوية الثلاثة ولا سيما الاسلام .

ونلاحظ ان الخطيب قد أكثر من اقتباس الآيات القرآنية وذلك طبيعي لأن المناسبه دينية . ثم نرى أن السجع يأتي في كلامه كثيراً ولكننا لا نشعر فيه بأيّ تكلّف ، وذلك راجع الى تمكّن الخطيب من مادته ولغته ولكثرة اعتياده هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المواقف ، وما جاء عنده من بقية الفنون البديعية كان عفو الخاطر لا استكراه فيه .

ولم يستشهد الخطيب بالحديث النبوي فقد أغنت عنه الآيات .

الخطب الحربية :

كانت الاحداث تتطلب أن يخطب القائد في جنده فيحسّسهم للقتال أو للدفاع والثبات وكانت هذه الخطب طبيعية الاسلوب خالية من التكلف مرتجلة .

١ — روى ابن شداد أن السلطان صلاح الدين أمر جنده بالانتقال الى الحرّوبة ، وكان ابن شداد بينهم ، فخطب فيهم فقال :

« باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدوّ الله وعدوّنا ، وقد نزل بلدنا ، ووطيء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير ، ولا بدّ من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءها نجدة تنتظرها سوى الملك العادل ، وهو راحل . وهذا العدوّ ، وإنْ بقي وطال أمره الى أنْ ينفتح البحر ، جاءه مَدَد عظيم ، والرأي كلّ الرأي عندي مناجزته ، فلْيخبرْنا كلّ منكم ما عنده في ذلك » .

« ابن واصل ، مفرّج الكروب ٢ : ٣٠٤ ، وأبو شامة ، الروضتين ٢ : ١٤٦ »

وهذه الخطبة موجزة تناسب المقتضى ، اهتمّ صلاح الدين فيها بالمعنى ولم يتكلف في المبنى وخلا أسلوبه من الصناعة تماماً . فهو يبين للجند أن العدو هو عدو الله وعدوهم ، وأن من واجبهم حربه ويستحثّ هممهم مبيناً لهم أن النصر قريب وأن العدو قد تضعضع فيجب استئصاله قبل أن يستريح ويأتيه المدد فيعاود الكرة ويحذّرهم من عاقبة ذلك .

وينبين من الخطبة إيمان الخطيب بما يقوله وحماسته لحرب الاعداء وقدرته على الإقناع مع الإيجاز ، وعدم مبالغته في اظهار العاطفه .

والمهم عنده ما يمكن أن يقدمه كل من قواده وجنوده في سبيل النصر ، وهو الغاية التي تتوجه اليها الخطبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ــ خطب الملك المظفر قُطُز في أمرائه ، وهو في الصالحية (من مصر) حين خرج لحرب التتار خطبة قصيرة قال فيها :

« يا أمراءَ المسلمين ، لكم زمانٌ تأكلون أموالَ بيت المال ، وأنتم للغَزاة كارهون ، وأنا متوجّه ، فمن اختار الجهاد يصحبْني ، ومن لم يختر ذلك يرجعْ الى بيته ، فإنّ اللهَ مطّلع عليه ، وخطيئةُ حَريم المسلمين في رقاب المتأخرين » .

« السلوك ، جـ ١ ، ٤٢٩ »

وفي غزة جمع قُطُز الأمراء مرة أخرى ، وحرّضهم على القتال وذكّرهم بما أحدث التتار من القتل والسبي والحريق وحثّهم على استخلاص الشام منهم وحذّرهم عقوبة الله .

وكان لخطبته فعلها في نفوسهم ، فقد ضجّوا بالبكاء وتعاهدوا على الثبات وصدّ الاعداء .

نستشف من الخطبة في الصالحية ، ثم من تكرار الخطيب الخطابة في غزة[1] ، أنّ القواد والجند كانوا يستشعرون الرهبة من لقاء المغول بعد أن بطش هؤلاء ببغداد والشام ونالوا انتصارات عظيمة في قسم كبير من آسيا ، فهو لذلك يذكّرهم بأنّ بيت المال لم يكن لِيحِلّ لهم لولا هذا اليومُ الذي يجب أن يدافعوا فيه عن الدين والبلاد .

وهو يضع القواد والجند أمام الموقف الحاسم الذي لا تردّدَ فيه ، فأيٌّ منهم لا يستطيع أن ينسحب من مجابهة المعركة حينئذٍ وإلا أقرّ على نفسه بالجبن والخسة وسرقة أموال المسلمين وضعف الإيمان .

وقد استطاع الخطيب بكلماته القليلة البسيطة الخالية من الكلفة أن يتلمس موضع التأثير من قلوبهم . ولذلك نراهم يضجّون بالبكاء ويتفانَوْن في القتال حتى يقلبوا صفحة المعركة لصالح المسلمين .

ولم نجد بعدُ خطباً دينيّة نضالية أو خطباً حربية في العهد الجركسي .

---

(١) السلوك للمقريزي ١ : ٤٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتـــابة الســـلطانية

الكتابة السلطانية تتناول شؤون الدولة الداخلية والخارجية • وهي تشمل :

أ ــ بيعات الخلفاء ، وتقاليد الملوك وولاة العهود ، ومراسيم إسناد الوزارة والنيابة والقيادة والقضاء والتعليم والخطابة •

ب ــ التوقيعات وبلاغات القصر والمنشورات السياسية والاقتصادية ••

جـ ــ نسخ الأمان والمعاهدات والهدن والأيْمان ، وشؤون السفارات ، بين ملوك المسلمين ، وبينهم وبين الملوك الأعاجم •

د ــ الرسائل الديوانية وكتابة التقارير •

وكان الذي يتولى هذه الامور كلّها كتابة وجواباً واصداراً واستلاماً ديوان الانشاء ، فلا بدّ من إيضاح مهماته •

ديوان الانشـــاء :

اهتمت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء فعنه كانت تصدر رسائلها والدعوة لها وما فيه إجلالها وتقديسها وسمّوا رئيسه بالشيخ الأجلّ وبكاتب الدست الشريف • وهو أقرب الناس الى الخليفة وقد يلازمه ، ويسر اليه هذا بما يكتمه عن وزرائه وأهله وولده ، وكان يحمل دواته أحد خدم الخليفة المقربين ، ويعطى الكسوة والرسوم والملاطفات[1] ويعدّ أول أرباب الاقطاعات •

وكان يلقب أحياناً بكاتب الدَّرْج ، واستمر شأنه كذلك الى أوائل أيام المماليك • وفي زمن الظاهر بيبرس كان يلي الديوان ثلاثة لا واحد ولكن كان أعلاهم درجةً القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر • وفي زمن المنصور قلاوون تولى الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ولُقّب بكاتب السر ونقل لقب كاتب الدست الى الطبقة التي تليه من كتاب الديوان •

وكانت أعمال رئيس ديوان الانشاء خطيرة كثيرة متشعبة فهو الذي يتولى

---

(١) الملاطفات : الهدايـا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن السلطان المراسلات الداخلية والخارجية وأمور المظالم وهو الذي ينظر في الكتب الواردة الى السلطان ويعرضها عليه ويدقق في الكتب الصادرة لتكون كاملةً لغةً ومعنى وأسلوباً وخطّاً واعراباً وألقاباً ، إذ لا يجوز أن يزاد أو ينقص أو يغيّر في الالقاب • وهو يدير أمر البريد ورجاله وأمر أبراج الحمام وملحقاته وأمر المخابرات (العيون والجواسيس) وسائر ما يتعلق بالمملكة •

ولم يكن بقوم بهذه الأمور كلها وحده فكان يساعده في كل ناحية منها كاتب مختص ماهر في ما يكلف به •

ومن هؤلاء الكتّاب كتّاب عملهم الترجمة من اللغات الاجنبية واليها وأكثر ما كان يحتاج اليه من اللغات : الفارسية والرومية والفرنجة ، أما التركية فكان يعرفها كثيرون •

وقد أدرك القلقشندي ما للديوان من شأن فقال : « لو جمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل » •

وكان الديوان بمثابة معهد علمي يتخرج به من سيعمل فيه في المستقبل بعد أن يتثقف بما يحتاج اليه ، وهو كثير ، وبعد أن يمتلك ناصية الكتابة •

وقد وليه طائفة من أشهر الكتّاب في مصر والشام منذ أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية دولة المماليك •

منهم في الدولة الفاطمية ابن الصيرفي علي بن منجب (ت ٥٥٠ هـ) وابن قادوس ويوسف بن محمد الخلال (ت ٥٦٦) • ومنهم في الدولة الايوبية القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير وعبد المحسن الحلبي وبهاء الدين زهير والصاحب بن لقمان • ومنهم في دولة المماليك محيي الدين بن عبد الظاهر والشرف الانصاري والشهاب محمود واحمد بن الاثير •

ومن الذين اشتهروا في مصر والشام غير هؤلاء ابن الشحناء الحسن بن محمد (ت ٤٨٢ هـ) • وعبد العزيز بن الحسين الاغلبي الصقلي المشهور بالقاضي الجليس (٥٦١ هـ) وأبو الحسن يحيى بن أبي علي المشهور بابن الجراح (٦١٦ هـ) • وجمال الدين عبد الرحيم بن شيث (ت ٦٢٥ هـ) •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن اشتهر من كتّاب الدولة السلجوقية في المشرق جلال الدين أبو الحسن (٥٥٤ هـ) وابن حمدون (٥٦٢ هـ) ، ورشيد الدين الوطواط المؤلف المترسل بالعربية والفارسية (ت ٥٧٣ هـ) ، وقوام الدين بن زبارة (ت ٥٩٤ هـ) ، ومنهم ابن الاصباغي وزير السلطان محمد خوارزم شاه (ت ٦٠٠ هـ) وكان بليغاً أديباً ، والمدائني نصر بن نصير بن لبث (٦٠٥ هـ) .

ويغلب على كتابات المشرق الطابع العقلي لاهتمامهم بالفلسفة والمنطق والعلوم العقليـــه .

وقد ألفت كتب عما يجب أن يتوافر في هذا الديوان من نُظم وما يجب أن يتصف به كتّابه .

ومن هذه الكتب في العهد الفاطمي « قانون ديوان الرسائل » لأبي القاسم ابن الصيرفي . وفي العهد الايوبي « المفتاح المنشا في حديقة الإنشا » لابن الاثير . و « فوانين الدواوين » لابن مَمّاتي (ت ٦٠٦ هـ) . وقد تحدث فيه عن مكانة الكتابه وصفات الكاتب ولكنه أولى عنايته العظمى لديواني الخراج والمال لأنهما اختصاصه .

ومن أشهر الكتب التي ألفت في العهد المملوكي « التوسل في صناعة الترسل » للشهاب محمود ، وفي العهد المملوكي الثاني كتاب « صبحي الاعشى في صناعة الإنشا » للقلقشندي . وسندرسه بشيء من التفصيل : « راجع الحياة الادبية ، بدوي ٣٣٢ ــ ٣٣٤ و ٣٣٩ ، وكتاب العقد المفريد للملك السعيد لمحمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، ص ١٤٨ » .

ثقافـة الكتـــاب :

كان الكاتب في ديوان الانشاء يحتاج الى ثقافة واسعه ولا سيما اذا كان يطمح لأن يصبح رئيساً لهذا الديوان الذي كان يسمى رئيسه كاتب الدست أو كاتب الدرج ثم أصبح اسمه أمين السر .

فهو بطبيعة عمله يحتاج الى أن يردّ على كل قضيه من قضايا الدولة أو قضايا الأمة عامة أو خاصة ، داخلية أو خارجيه ، فهو لسان الدولة ومدبّر أمورها ورأسها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المفكر وعلى صوابه وخطئه يبنى أحياناً فوز الدولة أو انكسارها أو انهيارها • لذلك كان عليه أن يكون ضليعاً بالعلوم الشرعية السياسية والعلوم اللغوية وما يتصل بها من أدب شعراً ونثراً ومن بلاغة ونحو وصرف ، كما كان يجب عليه أن يلم بالعلوم العقلية والكونية التي ترجمت عن الأمم الاخرى أو خاض بها العرب وابتكروها كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والطب والصيدلة وعلمي الحيوان والنبات والكيمياء لا إلمامَ المختص ولكنْ إلمام المثقف الذي يفهم مبادئها وما لا يجوز للمثقف الواسع الثقافة أن يجهله منها •

وأصبح عليه في عهد المماليك بخاصة أن يحسن اللغة التي كانت لغة الحكام الذين لم تكن أصولهم عربية وهي التركية أو الكردية وأن يحسن معها الفارسية • وقد وُصف ابن الأثير بأنه كان يحسن التركية والفارسية الى جانب العربية •

وعلى كاتب الديوان أن يكون عنده الاستعداد الفطري من البلاغة والفصاحة والقدرة على التعبير وان ينمّيه بالمران على فهم النصوص البليغة كالقرآن والحديث والشعر الجيد والحكم المختارة ، وبقراءة ما يكتب في الديوان من نصوص بليغة في جميع الموضوعات وان يحفظ القرآن وكثيراً من الاحاديث والقصائد والأمثال وكتابات البلغاء وروائع الحكم المترجمة •

قيل إنّ القاضي الفاضل أرسله أبوه الى ابن الخلال الذي كان رئيس ديوان الانشاء في الدولة الفاطمية ليعمل لديه فلما سأله عن مؤهلاته أجابه بأنه يحفظ القرآن وديوان الحماسة لأبي تمام فأجابه بأن ذلك كاف له • ونلاحظ أنه يعني كفاية ذلك في ابتداء العمل •

ثم كلّفه أن ينثر ديوان الحماسة فنثره ، ثم كلّفه أن ينثره مرة أخرى ليُلِمّ بمعانيه ولتحسن صياغته •

« الوشي المرقوم لابن الاثير (ضياء الدين) ص ٩ ،
وثمرات الاوراق لابن حجة ص ٥٣ »

كان نثر الشعر وسيلة المران على الصياغة القوية الجميلة وعلى فهم المعاني وتشقيقها • وكانت الثقافة الادبية القوية عمدة الكاتب ولكنّها لم تكن كلّ عُدّته كما ذكرنا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الكتّاب المشهورون في هذه الحقبة قلّة بالنسبة الى العدد الهائل من الشعراء وذلك لأنّ مناصب الديوان كانت قليلة في عاصمتي مصر والشام ولم يكن يتاح للكاتب ما يتاح للشاعر من اذاعة أدبه على الناس خاصتهم وعامتهم اذا لم يكن موظفاً رسمياً في الديوان • فأمام الشاعر مناسبات كثيرة خاصة وعامة يلقي فيها شعره •

ويلاحظ ان جميع كتّاب الدواوين كانوا تلاميذ ابن العميد الذي كان يعنى بالسجع وبالجناس وسائر أنواع الصناعة البديعية والبيانية وكانوا يرون مثلهم الاعلى طريقة الحريري • وقد أكّد القاضي الفاضل هذه الطريقة وبالغ فيها وأكثر حتى سميت بالطريقة الفاضلية • وبديهي أن يتفاوت كتّاب هذا العصر فيما بينهم سواء في قوة الاسلوب أم في غزارة الانتاج ، ولقد كان انتاج بعضهم كالقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني كبيراً جداً • ولكن انتاج الادباء لم يصل الينا كما وصل انتاج الشعراء • فلم يصل الينا الا عدد قليل من رسائل القاضي الفاضل والحصكفي وابن عبد الظاهر وابن سناء الملك •

وكان العماد الكاتب أوفر حظاً من القاضي الفاضل في بقاء كثير من رسائله الى اليوم بفضل مؤلفاته التاريخية والادبية •

وكان ديوان القاهـرة يأتي في المرتبة الاولى ، لأنهـا العاصمة ، وديوان دمشق يأتي في المرتبة الثانية ، لأنها مركز نيابة السلطان وحصن الدفاع الاول ضد المغيريـن •

النثـر الديـواني :

كانت الحروب الصليبية والتتارية وسائر الاحداث الكبرى التي ألمت بالأمة من كوارث وزلازل ومجاعات وانتصارات وأفراح مدعاة لازدهار هذا النوع من الكتابة • وربما بلغ الكاتب منزلة الوزير وربما ارتفـع عنها الى منزلة نائب السلطان •

ويشمل هذا النثر أنواعاً كثيرة منها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ــ العهود والتقاليد والتواقيع والمناشير :

وقد ذكر القلقشندي أن التقليد زمن الأيوبيين كان على ثلاث مراتب :

المرتبة الاولى ــ ان يفتتح كتّاب التعيين (الولاية) بخطبة تبدأ بحمد الله تعالى ثم تأتي البعدية ثم ما سنح من حال الولاية والمولّى ويوصى المولّى بما يلبق بولايته ثم يقال وسبيل كل واقف من النواب العمل به .

والثانية ــ تختلف عن الاولى فقط بأنها تبدأ بقوله : أما بعد حمد الله وباقي الاقسام تجري كالاولى .

الثالثة ــ تفتتح فيها الولاية بلفظ رسم ثم تأتي سائر الاقسام كما في الاولى والثانية ما عدا النصائح فانها لا ترد ...

أما زمن المماليك فقد كان التقليد بولايه أو سلطنة أو وزاره أو قضاء ، له طرّة ومتن ، كما يذكر القلقشندي .

ويقصد بالطرّة تلخيص الموضوع المكتوب فيه في مطلع التقليد ، وهذا ما قاله القلقشندي في صورة الطرة :

« أن يكتب : تقليد شريف بأن يفوض الى المفرّ الكريم أو الجناب العالي الكريم أو الى الجناب العالي الأميري الكبيري ، الكفيلي الفلاني أعز الله تعالى أنصاره أو نصرته أو ضاعف الله نعمته ، نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أو بحلب المحروسة أو بطرابلس المحروسة أو نحوها على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ما شرح فيه » .

ويدلّ ذلك على أن الصورة العامة لكتابة التقليد واحدة وان اختلفت من حيث العبارات والالفاظ . وكل تقليد يفتتح بالحمد لله ثم بأما بعد ثم يذكر حال الولاية وحال المولّى ، وانه بعد التفكير كان أحقّ من يتولى هذا الأمر . ثم يقال رسم الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني (ويدعى له) ان يقلد كذا ، أو أن يفوض اليه كذا ثم يوصي بما يناسب تلك الولاية للمولّى ثم يقال وسبيل كل وافف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكبار الكتاب أساليب وتفنّن كثير في ذلك ، والنهاية في التقاليد ليست واحدة وهي تتعدد تبعاً لاختلاف الكتاب ولتعدّد من يوجّه اليه الخطاب .

ويتباين الكتاب ويتفاوتون في صلب الموضوع تبعاً لتباين القدرة على تخيّر اللفظ وتبايُن مدى العناية بتكلف المحسنات والزخارف . وكان من أثر الحروب الصليبية أن العهود أصبحت تتضمن التوصية بالجهاد . وقد جاء في العهد الذي كتبه الخليفة الفاطمي الفائز لوزيره طلائع بن رزّيك :

فيما يتعلق بالجند « أشياع الدين وأعضاد دولة أمير المؤمنين ... والقائمون بمدافعة الاعداء عن حوزة الدولة العلوية والمدّخَرون لكفاح المباين للمملكة الفاطمية ... والمُعَدّون للذبّ عن بيضة المسلمين ، المصطلون نيرانَ الحرب والكفاح في المواقف التي تهتزّ فيها السيوف وتضطرب كُعوبُ الرماح » .

« حسن المحاضرة ٢ : ١٢٢ » .

وجاء في التقليد الذي أرسل به الخليفة العباسي المستضيء الى صلاح الدين بتوليته مصر والشام :

« وقد علمتَ ان العدوّ وهو جارُك الأدنى والذي يبلُغك وتبلُغه عينا وأُذنا ، ولا تكون للإسلام نِعْم الجارُ ، حتى تكون له بئس الجارُ ولا عذر لك في ترْك جهاده بنفسك ومالك ، اذا قامت لغيرك الاعذار . وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً أو تطرق أرضه مُماسياً ، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده ، قصد المستغبر[1] لا قصد المغير[2] وأن تحكم فيه بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير . وعلى الخصوص البيت المقدس فإنّه بلد الاسلام القديم ، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم ، والذي توجهت اليه الوجوه من قَبلُ بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته ... ومع هذا لا بد له من أسطول يُكثّر عددَه ويُقوّي مَدده .... » (حسن المحاضرة ٢ ، ٢٣) .

---

(١) من الغبرة .
(٢) من الغارة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجاء في العهد الذي كتبه بيبرس لابنه بولاية العهد ، وهو بقلم ابن لقمان سنة ٦٦٧ هـ :

« ومِن شيمته الاقتداءُ في بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سُنتنا ممّا يُضفيه على الاولياء من ملابس الفضل ، واقتفاءُ آثارنا في غزو بلاد الكفار ، والمَجاهد التي تطول بها أيدي الكماة بالسيوف القصار ... » .

« حسن المحاضرة ، ٢ ، ٣١ . والسلوك ١ : ٩٧١ »

فهذه العهود تهتم بالجهاد اهتماماً كبيراً وتبيّن أنّ همّ عظماء تلك العهود الاول كان طرد الغاصبين وأنهم كانوا مدركين حقيقة الخطر الذي تتعرّض له بلادهم . وكانت هذه الأنواع من الكتب تنتشر بين أيدي الناس لما فيها من صلة بين الحاكم والمحكوم وقد بيّن الشهاب محمود في كتابه « حسن التوسل ص ١١٠ » ما يجب أن يكون عليه انشاؤها : « الاحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلّته بحسب الرتب » ويجب أن يتوافر فيها براعة الاستهلال ومراعاة المناسبة وما تقتضيه الحال واختيار الكلام والمعاني ، فانه مما يشيع ويذيع ، ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت .

يفهم مما تقدم أن المقصود بالتقليد هو ما نعنيه نحن اليوم بالمرسوم أو القرار الذي يكلّف فيه موظف بعمل كالوزارة أو القضاء أو الولاية على اقليم أو قيادة جيش ...

وكان التقليد يقسم الى أربعة أقسام متقاربة الطول يخصّص الربع الاول لخطبة التقليد وفيها يحمد الله على إنعامه ، ويخصص الربع الثاني لمكانة الرتبة المقلدة وذكر نوعها وتفخيم أمرها ، ويخصص الربع الثالث لاوصاف المقلّد وذكر ما يمتاز به من صفات تناسب الرتبة التي يتقلدها ونوعها ، كالعدل والمهابة للقاضي ، والشجاعة وحسن تدبير الجيوش للقائد ، والعدل وحسن الرأي والتدبير والمعرفة بعمارة البلاد واصلاح الفساد للوزير ، وهكذا . ويخصّص الربع الباقي للوصايا التي يوصى بها المقلّد . (حسن التوسل للشهاب محمود ص ١٠١) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت كتب التقاليد تعمّم بالصيغة نفسها على البلاد كلّها في نسخ كثيرة .

وهذه الكتب تصور نواحي الحياة العامة في عصرها وهي لون من الادب وثيق الصلة بالحياة السياسية قليل الحظ من العاطفة لطابعه الرسمي العام ، ولكنّ فيه الصور المثالية التي يجب أن يكون عليها الموظفون الكبار في ذلك العهد بما يقدم فيها اليهم من نصائح ، وبما يخلع عليهم فيها من صفات ، بغضّ النظر عن السلوك الذي يسلكونه بعد أن يتولوا مَهامّ أمورهم . وإليك جزءاً من التقليد الذي كتبه الخليفة العباسي في القاهرة للملك الظاهر بيبرس وعظّم فيه من شأنه لأنّه هو الذي جعله يتولى الخلافة : « ... وبعدُ فان أولى الاولياء بتقديم ذكره ، وأحقّهم أن يُصبح القلمُ ساجداً وراكعاً في تسطير مَناقبه وبِرّه ، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدّماً ، ودعا الى طاعته فأجاب من كان مُنجِداً ومُتْهِماً ، وما بدت يد من المكرمات الا كان لها زَنْداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حِمى وغىً إلاّ أضرمه ناراً ، وأجراه دماً .... وقد أقام الدولة العباسية بعد أنْ أقعدتها زَمانةُ الزمان ، وأذهبت ما كان لها مِن مَحاسن وإحسان » .

« صبح الاعشى ٩ ، ١١١ »

ومن مرسوم بتولية أحد القواد ثغر عسقلان :

« ... وكانت مدينة عسقلان ــ حماها الله تعالى ، ثغرَ الإسلام الذي لا ثغر له في الشام سواه ، والرباطَ الذي من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه . وهو في عيون الكفار ــ خذلهم الله ــ نكتة . وأسباب طمعهم فيه منقطعة بمحاماته منبتّة ، ونحن نوفّر اهتمامنا عليه رعايةً لمكانه المَكين ، ونتنضي الكفاة لِتولّيه توصلا الى النكاية في المشركين ، وهو معقل للمسلمين المجاهدين ورِدْء ، ومجاوروه قوم لُدّ ، وأمرُهم أمرٌ إِدّ ، فيجب ان يُرتاد لضبطه النَّدْبُ الذي لا تهتبل غِرّتُه ، ويُسام لحفظه العَضْب الذي لا تتقى ضربتُه ، ويختارُ لصونه الشهم الذي تقف على المصالح هِمّتُه ، وتنفُذ فيها عزمتُه ، فتقلّد هذه الخِدمة عارفاً قدْرَ ما خُوّلتَ منها وعاملا بتقوى الله وخيفته في جميع ما تَأمرُ به وتَنْهى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا الثغر لمحلّه وسموّ مقداره ، وقرب العدو منه ودنوّ داره لا يُقنَع لـــه بمركزيته ، ولا يكتفى في حقّه بمرابطيّته وقراريّته ، فنحن نُسيِّر اليه العساكرَ المظفَّرة دفعتين في كل سنة على حُكم البدَل ، فيرِدُه عسكر جديد مُزاحُ العِلّة ، كتيفُ العَدّة وافرُ العُدّة ، يؤثِر أنْ يظهَر أثرُه ويُحافظُ على ما يطيب به ذِكرُه وخبرُه ، فبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات وضيِّقْ على العدوِّ فسيحَ النواحي والجهات وجهِّزْ اليه مَن يخيفه في مآمِنِه ، وابعثْ عليه مَن يطرقُه في أحرزِ أماكنِه ، واندُبْ مَن يطالعُك بخفيِّ أخباره ويظهرُ لك باطن أموره ومستور أسرارِه ، لتنتهزَ فيه الفرصةَ اذا لاحت مَخايلُها ، وتُبادر الغفلةَ منه اذا ظهرت دلائلُها ، واجعلْ للمتطوّعين من الكنانيّين نصيباً من ثواب الجهاد ، واحمِلْهم على استفراغ الوُسْع بغاية الحِرص والاجتهاد ، وافعل في هذا الباب ما تتضاعف به موادُّ الأجْر ، وتُنتسَخُ به الأوزارُ كما يُنتسَخُ الظلامُ بضياء الفجر » .

« صبح الأعشى جـ ١١ : ٦٣ ــ ٦٥ »

ويتبين من هذا المرسوم عظمُ الاهتمام بالدفاع عن الثغور والمحافظة على الحدود والعناية باختيار الاكفاء لذلك ، كما يتبيّن منه مشاركة القبائل العربية في المعارك حول عسقلان .

ومن تقليد حربي كتبه الشهاب محمود على لسان الظاهر بيبرس الى ابنه محمود سلامش بمملكة الروم ردّاً على كتابه الذي أرسله قبل حضوره :

« وليعلم أن جيوشنا في المسير اليه ، متى قصد عدواً ، سابقت خيولُنا خيالَها ، وجارت جيادُنا ظلالَها ، وأبت سنابكُها أن تجعل غيرَ سنابك الاعداء نعالَها ، وها هي قد تقدّمت وأقدمت ، ونهضت لإنجاده فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدمَ الجبال لصدمت » .

« حسن التوسّل ص ١١٤ »

يتضح من هذا التقليد اهتمام الظاهر بيبرس بسرعة نجدة قواده واعتمادُه على حسن نظامها وطاعتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتوقيع هو ما يعلق به الخليفة أو السلطان أو أحد الموظفين الكبار على ما يرفع اليه من كتب وطلبات .

ولم تحفل كتب الادب بايراد توقيعات العهد الفاطمي ، وما وصل الينا منها قليل ، منه توقيع للخليفة الفاطمي لدين الله (خطط المقريزي ٢ ، ٢٣٨) على كشف برواتب المستخدمين .

« أميرُ المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثيرَ الإعطاء ، ولا يكدّره بالتأخير له والتسويف والإبطاء ، ولمّا انتهى اليه ما أربابُ الرواتب عليه شملَهم برحمته ورأفته ، وأمّنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيعَ بذلك بخطّ يده . تأكيداً للإنعام والمَنّ ، وتهنئةً بصَدَقة لا تُتبَع بالأذى والمَنّ ، فليعتمدْ في ديوان الجيوش المنصورة إجراءُ ما تضمّنت هذه الأوراق ذكرَهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وايجاباً على سياقها لكافتهم ، من غير تأوّلٍ ، ولا تعنّتٍ ، ولا استدراكٍ ولا تعقّبٍ ، وليجروا في نسبياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مُبرَماً ولا ينسخ من رسمهم ما كان مُحكَماً ، كرَماً من أمير المؤمنين وفعلاً مبروراً وعملاً بما أخبر به عزّ وجل في قوله تعالى :

« إنّما نطعمُكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا » ولينسخ في جميع الدواوين بالحضرة إنْ شاء الله تعالى » .

يتبين من هذا التوقيع حرص الخليفة الفاطمي على وصول الرواتب الى موظفيه ومحافظته على مقاديرها ، فهو يعدهم وعداً ضمنياً بأنها ستبقى كما كانت من قبل .

ومن توقيعات العهد الزنكي :

كتب أحدهم في حلب الى نور الدين بأن تاجراً موسراً قد توفي عن ولد عمره عشر سنين وعن عشرين ألف دينار ، وهو يشير عليه بأن يصادر المال لخزانة الدولة ريثما يكبر الصغير فينفق معه على شيء ، ويحتفظ بالباقي للدولة ، فوقّع نور الدين :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمّره الله ، وأمّا الساعي فلعنه الله » . « الروضتين ١ : ١٣ »

ومن توقيعات العهد الأيوبي :

كتب أمير من أمراء الجيوش الى صلاح الدين ، وكانت الرسل تتواتر بينه وبين الأعداء بالصلح ، أن يأذن له بالعودة مع جنده الى بلاده ، فوقّع صلاح الديـــن :

« من ضيّع مِثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ؟ » .

« النوادر السلطانية : ١٣١ »

وكتب القاضي الفاضـــل الى صلاح الدين يستأذنه في الحـــج ، فوقّع صلاح الدين :

« على خيرة الله تعالى ، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً كبيراً » .

« الروضتين ٢ : ٧ »

يتبين من هذه التوقيعات أن موقعيها قد حافظوا على صفتي التوقيعات الرئيسيتين في العهود السابقة وهما : الإيجاز الشديد والوضوح .

وأطولها ، كما رأينا ، التوقيع الفاطمي .

ب ــ الرســائل :

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين يهنّئه بالنصر في حطين ، وكان غائباً بدمشق حين المعركة :

« ليَهْنِ المولى أنّ الله قد أقام به الدينَ القيّمَ ، وانه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولى كل مسلم ، وانه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنةَ والظاهرةَ ، وأورثه المُلْكين : مُلْكَ الدنيا ومُلْكَ الآخرة ، كتب المملوكُ هذه الخِدْمة ، والرؤوس الى الآن لم تُرفَعْ مِن سـجودها ، والدمـوعُ لم تُمْسَح من خدودها ، وكلّما فكّر الخادم أنّ البِيَعَ تعـود وهي مَسـاجد ، والمكانَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي كان يُقال فيه : إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ، يقال اليـومَ فيه : إنّه الواحد ، جـدّد لله شكرا تارة يفيض مـن لسانه ، وتارةً بفيض من جفنه ... تلك المكارمُ لا قعبانُ مِن لبن ، وذلك الفتح لا عُمانُ والبَمَن ، وذلك السيفُ لا سيفُ بنُ ذي يَزَن ... » .

« الروضتين ج ٢ ، ص ٨٢ »

يعبّر القاضي الفاضل في هذه الرسالة عن فرحه بالنصر ، وعن عاطفته الدينية وسروره بأن شعائر الدين الاسلامي قد عادت الى المسجد الاقصى وسائر مرابع القدس وأزالت شعائر المغتصبين ، ويبيّن فضل صلاح الدين بهذا النصر في خدمة الإسلام والمسلمين وإنعامَ الله عليه وعليهم .

وهو يستعمل السجع والجناس والطباق ولكنها لا تطغى على المعنى والعاطفة ووضوح الاسلوب وقوّته ، ويضمّن كتابه شطراً من الشـعر : تلك المكارمُ لا قعبانُ من لبن ، ويشير الى بعض معتقدات الصليبيين .

ولم تكن رسائل القاضي الفاضل كلّها في درجة الرسالة السابقة من تكلف فنون البلاغة فمنها رسائل أقلّ حظاً من التكلف وأقرب الى الاسلوب الطبيعي ، ومنها الرسائل التي أرسلها الى صلاح الدين في أوقات المحنة وضيقه النفسي بالمُعضلات ، وكان القاضي يسرع في ارسالها اليه ليُسرّي عنه ما به من الهمّ تمليها عليه الضرورة لا التأنق والمتعة . أرسل اليه رسالة حين حاصر العدو عكا وطلب المقاتلون المسلمون منه دستوراً أي اجازة موقتة من القتال ليستريحوا ولم يكن عنده مال ، على حين كانت الأمداد تتوالى للصليبيين فأثّر فيه الحزن وكاد يذهب بصبره وحلمه وقواه . « الروضتين ٢ : ١٠٣ »

وأرسل اليه رسالة أخرى حين نزلت به هزيمة كبيرة وهو يحاول فك الحصار عن عكا ، واشتدّ المرض والوباء والجوع بالمسلمين المحاصَرين وأجهزت سيوف الاعداء على بقية المقاتلة منهم ، فضجّ السلطان من الحزن والألم وصاح من فوره وهو في مخيّمه :

اقتلـوني ومالكـاً واقتلوا مالكاً معي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعجل القاضي الفاضل برسائله اليه تفعل فعل السحر فردّه الى الطمأنينة والثبات . وقد رأينا أن نختار نتفاً من احدى هذه الرسائل لنتبين منها مدى ما يفعله القلم في نصرة السيف وتباته ونفهم منها ما رمى اليه صلاح الدين حين قال ما معناه إنه ينصر بقلم القاضي الفاضل أكثر مما ينصر بسيوف المقاتلين :

« يا مولانا ، ألبس الله تعالى اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهّل ، ولم يستصلح ، ولم يسهّل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه واعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحّديه إلاّ أنت ؟ » .

« هذا وفي الأرض مَن هو للتشوّفة قرابة ، ومن له المملكة وراثة ، ومن له المال ثمرة ، ومن له العَدد ثروة : فأقعدهم وأقامك ، وكسّلهم ونشّطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبّب الدينار إليهم وبغّضه إليك ... نعم وأخرى أهمّ من الاولى : آنه كلما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الارض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ... كنت يا مولانا كما قيل أبقاك الله :

واستَ بسَلكٍ هازمٍ لنظيرِهِ ولكنّكَ الإسلامُ للشرك هازمُ

هذا وليس لك من المسلمين مُساعد إلاّ بدعوة ، ولا مُجاهد معك إلاّ بلسانه ، ولا خارج معك إلاّ بهمّ ، ولا خارج بين يديك إلاّ بالأجرة ...

والمشورات تتنوّع بمجلسك : فقائلٌ لِمَ لا تتباعدُ عن المُنازَلة ؟ وآخرُ لِمَ لا تَميل الى المصالحة ... فألهمك الله قتلَ الكافر وخلافَ المُخذّل ، والتعلّقَ وتحت قدميكَ الجمرُ ، وأفرشك الطمأنينةَ وتحت جنبيكَ الوعرُ :

ولكنّ مولانا صحيفةُ وجهِهِ
كضوءِ شِهابِ القابسِ المُتنوّرِ
قليلُ التشكّي للمُهِمِّ يُصيبُه
كثيرُ الهوى شتّى النوى والمسالكِ

« فالشدةُ تذهب ويبقى ذِكرُها ، والأزمة تنفرجُ ويبقى أجرُها ، وكما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يُحدِث استمرارُ النِّعم لمولانا ، عزّ نصرُه ، بَطَراً ، فلا تحدِثُ له ساعاتُ الامتحانِ ضجَراً ، والمملوكُ يستحسن بنتي حاتم ، ومولانا ، أبقاه الله وخلّد سلطانه وملكه ، يحفظهما :

شربْنا بكأس الفقرِ يوماً وبالغنى
وما منهما الا سقانا به الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابه
غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ »

« الروضتين ٢ حوالي ص ١٠٢ »

إننا نتساءل حقاً ماذا كانت حال صلاح الدين في هذه الفترة العصيبة لولا القاضي الفاضل الذي قوّى ايمانه بالنصر ، ويقينه بأن العاقبة للمتقين ، وردّ اليه نفسه التي كادت تهيم في بداء الخيبة واليأس ، وكان الى جانبه بالروح ، وان كان بعيدا عنه في المكان ، فلم يكن يقطع عنه رسائله ، ولم يكن ينقطع عن أخباره .

ولقد نسي القاضي في غمره العاطفة والحماسة كلّ صناعته البلاغية وانصرف الى أداء المعاني والمشاعر .

ومن رسالة أرسلها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الى الصاحب بهاء الدين بن حنا بصف فتح الملك الظاهر لقيساريّة من بلاد الروم وأخذها من التتار :

« ولا يقتدحُ من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمُرّ على مدينة إلا مرورَ الرياح على الخمائل في الأسائل والأبكار ، ولا نقيم إلاّ بمقدار ما يتزيّدُ الزائر من الأُهبة أو يتزوّدُ الطائرُ من النُّغْبة ، نسبق وفدَ الريح من حيث تنتحي ، ونكاد مواطىء خيلنا بما نسحبه أذيالُ الصوافن تمتحي ، تحمل همَمنا الخيلُ العتاق ، وبكبو البرق خلْفَنا اذا حاول بنا اللحاق ، وكل يقول لسلطاننا نصره الله :

أيــن أزمعــتَ أبتْهــذا الهُــامُ

نحــن نبتُ الرُّبــا وأنتَ الغَمــامُ

ومُرْ يفعلِ السيفُ آفعالَه ، ولا يسيرُ في مهمّةٍ الا عمّه ، ولا جبلٍ الا طالَه ، تسايرُه السواري والغوادي ، ولا ينفكُّ الغبثُ من انسكاب في كل نادٍ ووادٍ ... » .

« صبح الاعشى ١٤ : ١٤٠ »

لا يترك الكاتب السجع في هذه الرسالة ولا تفارقه صناعته البيانية والبديعية ولكنّه يضيف الى ذلك القدرة على الوصفين المادي والمعنوي فهو يصف الخيل وسرعة الرحيل ، وهطول المطر كما يصف التلهف الى لقاء الاعداء ومتابعتهم .

رسالتان متبادلتان بين تيمور وبرقوق تمثلان الكتابة الديوانية في العهد المملوكي الثاني

كتب تيمور لنك الى الملك الظاهر برقوق يتهدّده وكان هذا يُعِدّ العُدّة للقائه ، بعد أن اصطدم جيش حلب المملوكي مع طلائع تيمور وهزمها وقتل منها خلقاً كثيراً :

« قلِ اللهمّ مالكَ الملك ، فاطرَ السموات والارض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلموا أنّا جندُ الله مخلوقون من سُخْطه ، ومسلّطون على من حلّ بغضبه عليه ، لا نرِقُّ لِشاكٍ ولا نرحم عَبرة باكٍ ، قد نزع اللهُ الرحمةَ من قلوبنا ، فالويلُ ثم الويلُ لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا ! قد خرّبْنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلّت لنا أعزّتُها ، وملكْنا بالشوكة أزمّتَها ، فإنْ خُيِّل ذلك على السامع وأشكل ، وقال : إنّ فيه عليه مُشكلاً ، فقُلْ : (إنّ الملوكَ اذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً) ، وذلك لكثرة عددنا ، وشدة بأسنا ، فخيولُنا سوابقُ ورماحُنا خوارق ، وأسنّتُها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبُنا كالجبال ، وجيوشُنا كعَدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، ومُلْكُنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يرام ، وجارُنا لا يُضام ، وعزّنا أبداً لسؤدد منقام ، فمن سالمَنا سلِم ، ومن حاربنا ندِم ، ومن تكلّم فينا بما لا يَعْلَم جهِل . وأنتم إن أطعتم أمرَنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لَنا ، وعليكم ما علينا ، وإنْ خالفتم وعلى بغيِكم تماديتم ، فلا تلوموا إلا أنفسَكم ، فالحصونُ منّا مع تشييدها لا تَمنع ، والمدائنُ بشدّتِها لقتالنا لا ترُدّ ولا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب فينا فلا يُسمَع ، فكيف يسمع اللهُ دعاءكم وقد أكلتمُ الحَرام ، وظلمتم جميعَ الأنام ، وأخذتم أموالَ الأيتام ، وقبلتم الرشوةَ من الحكام ، وأعددْتم لكم النارَ وبئس المصير : : (إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) فبِما فعلتم ذلك أوردتم أنفسَكم مَوارِدَ المَهالك ، وقد قتلتم العلماء ، وعصيتم ربّ الأرض والسماء ، وأرقتم دم الاشراف ، وهذا والله هو البغيُ والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد يُنادَى عليكم : (فاليوم تُجزَوْن عذابَ الهُون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسُقون) فأبشروا بالمذلّة والهَوان ، يا أهلَ البغي والعُدْوان ، وقد غلب عندكم أنّنا كَفَرة ، وثبت عندنا والله أنّكم الكفرةُ الفجَرة ، وقد سلّطنا عليكم الإله ، له أمورٌ مقدّرة ، وأحكامٌ محرّرة ، فعزيزُكم عندنا ذليل ، وكثيرُكم لدينا قليل ، لأنّنا ملكنا الارضَ شرقاً وغربا ، وأخذنا منكم كلَّ سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا بردّ الجواب ، قبل أن ينكشف الغِطاء ، وتُضرِمَ الحربُ نارَها ، وتضعَ أوزارَها ، وتصيرَ كلُّ عينٍ عليكم باكية ، وينادِيَ مُنادي الفراق : هل ترى لهم مِن باقية ، ويُسمِعَكم صارخُ الفَناء بعد أنْ يهزّكم هزّا ، (هل تُحِسُّ منهم مِن أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزا) وقد أنصفناكم إذْ راسلناكم ، فلا تقتلوا المرسَلين ، كما فعلتم بالأوّلين ، فتُخالِفوا كعادتكم سُنَن الماضين ، وتَعْصُوا ربَّ العالمين ، (فما على الرسول إلاّ البلاغُ المُبين) ، وقد أوضحنا لكم الكلام ، فأرسلوا برد الجواب والسلام » .

« عن النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٤٩ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ــ يتلخص مضمون هذه الرسالة بما يلي :

١ ــ البدء ببداية دينية وباستخدام بعض الآيات الكريمة : « عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » .

٢ ــ استخدام نظرية الحكم الإلهي في الغلبة والتسلط : « هم جند الله ، مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حلّ غضبه عليه » .

٣ ــ التهديد بالغلظة وعدم الرحمة وذكر ما فعلوه قبل من تخريب وتيتيم وفساد واذلال ، وقوة وكثرة عدد (والاستشهاد بآية : إن الملوك اذا ...) والإفاضة بوصف قوة الجيش وكثرته وحسن عدته وبتعوده النصر المؤكد .

٤ ــ الدعوة الى الطاعة فلا يمنع منهم حصن ولا سور .

٥ ــ ان دعاء المخاطبين لا يسمع لبغيهم وظلمهم وقتلهم الأشراف والعلماء ، واستحقاقهم العذاب بالنار وإيراد آية (فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب ...) .

٦ ــ اتهامهم فريقَ المرسِل بالكفر وهو يتّهمهم بأنّهم هم الكفرة ولذلك يستجيز قتلهم .

٧ ــ طلب الإسراع في الردّ قبل أن يحِلّ بهم الويل فيصبحوا كأن لم يكونوا (هل تُحِسُّ منهم من أحَد ... الآية) .

٨ ــ ينذرهم بألاّ يقتلوا المرسَلين حاملي إنذارِه (فما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

٩ ــ يختتم الكتاب بتكرار طلب ردّ الجواب .

بعث نبسور لنك بهذه الرسالة الى السلطان برقوق في غمار انتصاراته في الشرق العربي وبعد أن ردّت طلائعه في حلب ، إرهاباً لاعدائه وتحطيماً لاعصابهم ومعنوياتهم لنثوب مناب جيش من الرعب في حربهم .

وقد رتبت معانيها ترتيباً منطقياً لتؤدي الغاية التي كتبت من أجلها بحيث تقطع نياط قلوب الضعفاء لما فيها من تهديد صارم لم يستعمل معه اللين مطلقاً وهي تخاطب الاعداء مخاطبة الأعلى للأدنى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ ويشعر القارئ، أن كاتبها شديد السخط على من يخاطبهم كثير البغض لهم والحقد عليهم فاقد صفة الرحمة في حربهم وأنه يستشعر الشعور الديني المعادي ضدّهم فهو يصفهم بأنهم قتلوا العلماء والأشراف مريداً بهم آل بيت النبي ومثيراً مشاعر الشيعه ضد السنه في تحقيق مآربه التوسعية .

وليس المخاطبون هم الذين قتلوا من يعيبهم من العلماء والاشراف ولكنه يُحمّل الأبناء تبعة ما فعله الآباء والأجداد ليُحكّم سيفه في رقابهم .

جـ ـ لم يعتمد الكاتب على الصور البيانية في أداء أفكاره ولكنه استخدم التصوير الواقعي لإرهاب الاعداء وذلك بعرض ما فعله فريقه فيمن سبقهم من المحاربين ضدّه .

د ـ استخدم الكاتب السجع وأكثر من اقتباس الآيات الكريمة وإيرادها شواهد لتحذها حجة على أعدائه ولكنه لم يُفرط في استخدام الفنون البديعية الأخرى .

هـ ـ الاسلوب واضح متين متماسك خال من الاخطاء .

كتب الملك الظاهر برقوق في الجواب على بيمورلنك بعد البسملة الشريفة :

(قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلْكَ مَن تشاء ، وتنزع المُلْكَ ممّن تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء) ، وحصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ، ونزعاتكم الشيطانية وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الخانية ، وسيرة الكَفَرَة الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سُخْط الله ومُسلّطون على من حلّ عليه غضبُ الله ، وانكم لا تَرفقون لِساك ، ولا نرحمون عَبرة باكٍ . وقد نزع اللهُ الرحمةَ مِن قلوبِكم ، فذاك أكبرُ عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين ، لا مِن شِيَم السلاطين ، ونكفيكم هذه الشهادةُ الكافية ، وبما وصفتم بِه أنفسَكم ناهيك (قل يا أيُّها الكافرون ، لا أعبُدُ ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ ، ولا أنا عابدٌ ما عَبَدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبُد ، لكم دينُكم ولي دينِ .) ففي كل كتاب لُعنتم وعلى لسان كلّ مرسَل لُعِنتم . وبكلّ فبيح وُصمتم ، وعندنا حَبَرُكم مِن حين خرجتم ، أنكم كفَرَة ، ألا لعنةُ الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الكافرين ، مَن تمسّكَ بالأصول ، فلا يبالي بالفروع ، نحن المؤمنون حقّاً ، لا يدخُلُ علينا عيبٌ ، ولا يضرُّنا ريبٌ ، القرآنُ علينا نزَل ، وهو سبحانه رحيمٌ لم يزل ، فتحقّقْنا نزولَه ، وعلمنا ببركة تأويلِه ، فالنارُ لكم خُلِقتْ ، ولِجلودِكم أُضرمت ، (اذا السماءُ انفطَرَت) ، ومِنْ أعجب العَجَب تهديدُ الرُّتوتِ بالتوتِ والسباعِ بالضباعِ والكُماةِ بالكُراعِ ، نحن خيولُنا برْقية ، وسِهامُنا عربيّة ، وسيوفُنا يَمانية ، ولَبوسنا مِصرية ، وأكفُّنا شديدة المَضارب ، وصِفتُنا مذكورة في المشارق والمَغارب ، إنْ قتلناكم فنِعْم البضاعة ، وإن قُتل منّا أحد فبينه وبين الجنّة ساعة ، ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزَقون ، فرِحين بما آتاهُم اللهُ مِن فضله ويستبشرون بالذين لم يَلْحَقوا بهم مِنْ خَلْفِهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ اللهَ لا يُضيع أجْر المُؤْمنين) .

وأما قولُكمْ قلوبُنا كالجِبال وعددُنا كالرمال ، فالقصّابُ لا يُبالي بكثرة الغَنَم ، وكثيرُ الحَطب يُفنيه الضَّرَم (كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله معَ الصابرين) . الفارُّ الفارُّ مِن الزوايا ، وطولِ البلايا ، واعلَموا أنَّ هجوم المنيّة عندنا غايةُ الأمْنية ، إنْ عشنا عشنا سعداءَ ، وإنْ قُتلنا قُتلنا شهداءَ ، ألا إنّ حزبَ اللهِ همُ الغالبون ، أبْعدَ أميرِ المؤمنين،وخليفةِ ربِّ العالمين ، تطلبون منّا طاعةً ، لا سمعَ لكم ولا طاعةً ، وطلبتم أنْ نُوضح لكم أمْرَنا قبل أنْ ينكشِفَ الغِطاء ، ففي نَظْمه تَرْكيك ، وفي سِلْكه تلْبيك ، لو كُشف الغِطاء لَبانَ القصدُ بعدَ بَيانٍ ، أكفرتُمْ بعدَ إيمان ، أمِ اتّخَذْتم إلهاً ثان ، وطلبتم مِن معلوم رأيِكم ، أن تتّبع دينَكم (لقد جِئتُم شيئاً إدّاً تكاد السمواتُ يتفطّرن منه وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبال هدّا) ، قُلْ لكاتبِك الذي وضع رسالتَه ، ووصف مقالتَه ، وصلَ كتابُك كضَرْب رَباب ، أوْ كطنين ذُباب ، (كلاّ سنكتبُ ما يقولُ ونمُدُّ له من العَذاب مَدّا ، ونَرِثُه ما يقول) إنْ شاء اللهُ تعالى . لقد لَبَكتُمْ ، في الذي أرسلتُمْ ، والسلامُ » انتهى .

« عن النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٥١ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ا ـ يتلخص جواب الظاهر برقوق بالأفكار التالية :

١ ـ البدء بآية تجعل نصر كل جيش أو هزيمته بيد الله (قل اللهم مالك الملك ...) وهذه البداية الدينية تقابل بداية خصمه وتوافق أسلوب ذلك العصر .

٢ ـ يعدّد ما يفخر به خصمه من القسوة والغلظة عيباً من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، وينتخذ منه شاهداً على كفر الخصم ، ويؤيد ذلك بسورة قصيرة قرآنية يبيّن فيها أنّ نهجه غيرُ نهج الخصم ، (قل يا أيها الكافرون ...) .

٣ ـ يبيّن تنبّهه لتحرّكهم واعتقادَه بكفرهم ويصرّح بأنّ فريقه هو المؤمن حقّاً وأنّ النار خُلِقت لخصمه .

٤ ـ يفخر بما لديه من عُدّة ومن تجربة وكفاءة في الحرب ومن انتظار الشهادة أو النصر مستشهداً بالآية الكريمة (ولا تحسبن الذين ...) .

٥ ـ يسخر باعتدادهم بعددهم وعددهم ويرى أن النصر حليف المؤمنين الصابرين ويستشهد بالآية (كم من فئة قليلة ...) ويفخر بأنه يطلب مع جنده فرحة النصر أو سعادة الشهادة ويلمّح الى أن حزبه حزب الله .

٦ ـ يصرح بألا طاعةَ لهم بعد أن قتلوا الخليفة العباسي أمير المؤمنين وبدا بذلك أنّهم وإن ادّعوا الاسلام فهم أحفاد أولئك المغول المشركين الذين قتلوا الخليفة وكأنه بذلك يُحمّل الابناء تبعة أعمال الآباء كما فعل خصمه ، ويفيد من ذلك أنّ حربهم واجبة لأنهم في نظره مجرمون كأجدادهم .

٧ ـ يعيبهم بسوء البيان في الكتابة ويزْري بطلبهم منه الطاعة ويستعظم جرمهم في ذلك مستخدماً الآية : (لقد جئتم شيئاً إدّا ...) .

٨ ـ يسخر مرة ثانية بالمرسِل وكاتبه ويعدّد كتابته طنينَ ذباب ويهدّد ويوعد وينتظر لعدوه الخيبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد رتّب الكتاب ترتيباً منطقياً يؤدي فكرته العامة أداء جيداً وهي تتلخص بأنّ وعيد خصمه لم يؤثر فيـــه •

ب ــ يستشعر قارىء الكتاب بأن المرسِل رابط الجأش قوي الأعصاب ، ناقم على خصمه يهدد ويتوعد ويستخدم العاطفة الدينية مثله ؛ ولكنّ أثر المدنية أوضح في عباراته ومقاصده لأنّه لا يرمي نفسه بالغلظة مثله ولكنه يصف نفسه بالثبات وأنه على حق في الدفاع ويزيد على خصمه بالتعبير عن عاطفة السخرية أكثر من مرة •

جـ ــ الكاتب لا يستخدم التصوير الواقعي نتيجة لعدم وصف نفسه بالغلظة كخصمه ولكنه يستخدم الصور البيانية في غير مبالغة ، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت ، والسباع بالضباع والكماة بالكراع •••) فالقصّاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكبير الحطب يفنيه الضرم ، كضرب رباب ، أو كطنين ذباب •

ويلاحظ أن هذه التشابيه موفقة جيدة واقعة مواقعها بالاضافة الى أن الكاتب قد استخدم الآيات أحياناً في تشبيهات تمثيلية : (كم من فئة قليلة ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، كلا سنكتب ما يقول •••) •

د ــ أكثر الكاتب من اقتباس الآيات القرآنية وكان أحسن استخداما لها من خصمه ، واستخدم من الفنون البيانية السجع والطباق بالإضافة الى الاقتباس . ولكنه لم يفسد أسلوبه بالمبالغة فيها •

هـ ــ أسلوبه واضح ولكنه أكثر صنعة وتلويناً من أسلوب خصمه • وهو صحيح الأداء ، فصيح الالفاظ •

النثـــر الذاتـــي والوجـــداني

كان النثر الدبواني هو الذي يحتل الصدارة والى جانبه كان بعض النثر الذاتي الذى يعبر عن مشاعر أصحابه من الكتّاب •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد اشترط له ابن الاثير شروطاً (المثل السائر ج ١ ، ص ٨٦) • منها ما جاء في قوله : « فأما الكتب الإخوانية والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه ، لاحتمال أن يقع ، أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن ، ويعلم به استعداد الفكر ، فان الكاتب في ذلك مطلق العنان ، محلى بيه وبين قوته فبه أو ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه » •

وقد حاول الكتاب أن يعبروا بحرية عن خلجات نفوسهم ولكنهم لم يستطيعوا التخلص من الاسلوب المتكلف الذي ألفوه في النثر الديواني •

كتب السهاب محمود في رياضة الخاطر كتاباً الى إنسان تخيله يتضمن مخاطبته بتزويج أمه ، وكتاباً الى من هزم مع جيشه يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده وحثه على الاخذ بتأره ، وكتاباً في ذم المهزوم وتقريعه ، وكتاباً على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ووصف الاحتفال بأخذ التأر ، ومما قاله فيه :

« الى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا من العدو بما يسره ، وبلّغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سرّه ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما نحقق به أنّ كسوف الشمس لا ينال طلعتها ، وانّ سرار القمر لا يضرّه » •

« حسن التوسّل ص ١١٦ »

وبدور موضوع الرسائل الاخوانية حول الصداقة والصلة بين الاخوان والاقرباء والاصدقاء وتتخللها مشاعر العتاب والاعتذار والحب ، ويحاول الكاتب فيها الاعراب عما في نفسه وازالة جفوة صديقه •

وقد أكثر كتّاب هذه الحقبة من الرسائل الاخوانية ، وفيها عاطفة صادقة ، وشعور انساني سام على الرغم مما فيها من تكلف أسلوبي كان يحجبها بعض الحجب •

ويتبين من موضوعاتها أنها موضوعات الشعر الغنائي نفسها ولذلك نراها تكثر الاقتباس منه لتوافقهما فيها •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا مثال منها مشفوع بالاقتباس من الشعر :

كتب القاضي الفاضل الى أحد اخوانه يعبر عن شوقه ويعاتب (نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٢) :

أكـــذا كـــل غائـــب غـــاب عمّـــن يحبّـــهُ

غـاب عنـــه بشـخصه وســـلا عنـــه قلبـــهُ

لو أنّ لي يداً تكتب ، أو لساناً يسهب ، أو خاطـراً يستهلّ ، أو فؤاداً يستدلّ ، لوصفت اليه شـوقاً ان استمسك بالجفون نَثَرَ عقدَها ، أو نزل بالجوانح أشعر وقدَها ، أو تنفس مشتاق أعان على نفسَه ، وظنه استعاره من قبَسه ، أو ذكر محبٌ حبيباً خاله خطر في خلَده ، وتفادى من أن يخطر به ذكر جَلَده .

حتـى كـأن حبيبـاً قبـــل فرقتـه

لا عـن أحبّتـه ينـأى ولا بلـــده

بالله لا ترحمـوا قلبـــي وان بلغـت

بـه الهموم فهـذا ما جنـى بيـده

ولولا رجاؤه أنّ أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح وزيارة طيف يخلعها الصباح ، لاستطار فؤاده كمَدا ، ولم يجد ليوم مسرّته أمدا ولكنه يتعلل بميعاد لقيـاه ، ويدافـع ما أعلّه بلَعلّه أو عساه .

غنـى في يـد الاحـلام لا أسـتفيده

وديـن عـلى الأيـــام لا أتقاضـاه

ومن غرائب هذه الفرقة وعوارض هذه الشقة أنّ مولاي قد بخل بكتابه وهو الذي يُداوي به أخوه قليلَ اكتئابه ، ويستعدي به على طارق الهمّ اذا لجّ في انتيابـه .

كمِثل يعقوبَ ضلّ يوسُفَه

فاعتاض عنه بشمّ أثوابه

وهبْ أنّ فلاناً عاقه عن الكتب عائق ، واختدع ناظره كمن هو في ناضر عيش رائق فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهر وُدّه عرضاً ، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضاً .

بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت

من المكاره أو للبرق ما ومضا

وما عهدته أدام الله سعادته إلا وقد استراحت عواذله ، وعُرّي به أفراسُ الصِّبا ورواحله . الا أن يكون قد عاد الى تلك اللُّجَج ومرض قلبه فما على المريض من حرج ، وأياً ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها ، ونفسي أسيرة غُلّة لا أطيقها بل أطيعها .

واني لمشتاق اليك وعاتب

عليك ولكن عتبة لا أذيعها

والأخُ النّظام ، أدام الله انتظام السعد ببقائه وأعْداني على الوجد بلقائه ، مخصوص بالتحية إثْرَ التحية ، ووالَهفي على تلك السجية السخية ، وردتْ منها البابليّ معتقا ، وظَلْت من أسر الهموم بلقائها معتَقا .

خلائق إما ماءَ مُزْن بشهدِه

أُغادَى بها ، أو ماءَ كَرْم مصفّقا

وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجراني ، ونسوا كل عهد غير عهد نسياني :

وما كنتُمُ تعرفون الجَفا فبالله ممّن تعلمتمُ . »

يلاحظ أن أسلوب القاضي الفاضل في رسالته الاخوانية هذه هو أسلوبه نفسه في الرسائل السلطانية غير أنه هنا يتحدث عن عاطفته ولذلك كان كلامه

في صوره وصناعته قريبا من الشعر لا ينقصه عنه الا الوزن ، كثير التكلف للسجع وسائر فنون البديع . كثير الصور ، يورد الشعر حلال نثره مستشهداً به وكأنه من كلامه . وهو هنا يصف شوقه الشديد وجفوة صديقه بعد الصفاء وطول انقطاعه عنه دون سبب ، ويتفاءل برجوع الصلة كما كانت ويمدح أخلاق صاحبه ويتمدّح هو ببقائه على عهده .

ويتسم كلامه بطابع المبالغة ولا سيما في أوله حين يصف شوقه الى صديقه . ونعتقد أن التكلف فيه قد أساء الى المعاني وقلّل من وضوحها .

وكتب شرف الدين عيسى بن حَجّاج العالية الى الوزير الكاتب فخر الدين ابن مكانس ، أحد شعراء القرن الثامن وكتّابه ، رسالة اخوانية يستوهبه فيها شاشاً :

« يقبّل الارضَ التي شاق ترابُها المواطىءَ الفخرية ، فزاد اعجابا ، وقال المسك يا ليتني كتب ترابا ، ويُنهي أنه أقبل على المطالعة ، والباقي من العشر الى ليال خمس ، واستهدى بنجومِ فوائِدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس ، واستدعى أعوانا من السهر ، فتخاذلت عنه أعوانُه وخشي من غلبة النوم فتغلّب عليه سلطانُه ، ولمّا أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة بلسانها وتناولت طرف شاشه بين نيرانها ، فهبّ المملوك ، وأخمد منها ما تصاعد من الأنفاس وقابلها على حرق الشاش بقطع الرأس :

إني جلست بشمعة موقودة
لأطالع الأسفار للتسبيح
فتناولتْ شاشي أوائلُ نارها
ونمكّنت منه بمرّ الريح
من قبل حرْق الشاشِ كنتُ مطالِعا
في الكُتْبِ صرتُ مطالِعاً في الروح

وقد توسلتُ بهذه الرسالة المدوّنة في باب المنظوم والمنثور ، ومددتُ بد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سئولي الى طلبي شاشاً مقصوراً ، وأرجو أن يجمع لي بين الممدود والمقصور أبقاك الله للأولياء الذين يحبون وجودك ويستمطرون كرمك وجودك » .

« مطالع البدور ١ : ٨٦ »

يلاحظ هنا أن الرسالة تقوم مقام القصيدة في المدح والاستسماح وأنها قد اتسمت بالسجع ، واستخدمت فنون البديع الاخرى ، وتضمنت الشعر ؛ ولكنه من نظم كاتبها وليس مقتبساً من غيره . وبصور كاتبها حاله من السهر والمطالعة وكيف عفا فأحرقت الشمعة شاش عمامته فهو يطلب من الممدوح أن يعوضه عنه بأسلوب وصفي خفيف الروح .

وقد تناولت الرسائل الاخوانية الرثاء كما تناولت الشعر . ومن رسائل الرثاء رسالة ابن الوردي في رثاء الإمام البارزي الشافعي وقد أرسل بها الى ابنه : (تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٣٢١) .

« ... وينهي انه بلغ المملوك وفاة الحبر الراسخ ، بل انهداد الطود الشامخ ، وزوال الجبل الباذخ ، الذي بكته السماء والارض ، وقابلت فيه المكروه بالنكد ، ودلك فرض ، فشرفت أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين الضلوع ، وساواه في الحزن الصادر والوارد ، واجتمعت القلوب لما تم لمأتم واحد ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزي فيه ، والبر ينعاه ، والحكم يتفداه ، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده » .

تتسم الرسالة بالمبالغة والسجع والجناس والطباق وسائر فنون البديع وفيها تشابيه واستعارات وكنايات كثيرة ويأتي الكاتب بصفات مناسبة لصنعة المتوفى تتعلق بالعلم والكتابة .

وتناولت الرسائل الاخوانية الوصف كما تناولت الشعر ، ومن ذلك وصف الآثار .

وتناولت الرسائل وصف عدد الحرب وآلاتها براً وبحراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال العماد الكاتب في وصف الاساطيل التي استقدمها صلاح الدين من مصر (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١) :

« فجاءت كالفتح بالفُلْك المواخر ، وجاءت كأنها أمواجٌ تُلاطِم أمواجا ، وأفواجٌ تزاحم أفواجا ، تدِبّ على البحر عقاربُها ، وتَجِفُ كقِطَع الليل سحائبُها . والحاجبُ لؤلؤٌ مقدَّمُها ومِقدامها ، وضِرغامٌ غايتُها وهُمامها ، فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلُبُ ويسلُب ، ويقطع الطريق على سفُن العدوّ ومراكبِه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه » .

يشمل الوصف كثرة السفن وعظمها ومجيئها زمراً ويذكر قائدين من قوادها ويذكر فعلها في الاعداء وسفنهم ذكراً مجملاً لا يتعرض فيه الى تفصيلات المعارك وجزئياتها . ويغلب على أسلوبها السجع والجناس .

ووصف القاضي الفاضل في إحدى رسائله حصن الكرك الحصين الذي كان بأيدي الصليبيين يقطع طريق الحجّ ، على المسلمين ، فقال :

« هو شجىً في الحناجر وقذىً في المَحاجر ، قد أخذ مِن الآمال بمَخْنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرُقها ، وصار رئيساً للدهر في ذلك الفجّ ، وعُذْراً لتاركِ فريضة الله من الحج ، وهو وحصن الشوْبك يسّر اللهُ الآخرَ ، كبيت الواصف للأسدَيْن :

ما مرَّ يومٌ إلاّ وعندهما لحمُ رجالٍ أو يولِغان دماً

« الروضتين ٢ : ٥٥ »

اهتم القاضي الفاضل حين وصف هذا الحصن بوصف خطره على الناس والحجاج منهم بخاصة وعلى الجند ولذلك نراه فرحاً بالاستيلاء عليه يرجو أن يستولي صلاح الدين على نظيره في الخطر وهو حصن الشوبك فنرى أن الرسالة تقوم بدورها من التوجيه المعنوي والكفاح في سبيل التخلص من الاعداء ، وأسلوبها متكلف .

وتناولت الرسائل الاخوانية الى جانب الجد حديثاً كثيراً عن اللهو . كتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدر الدين بن الصاحب الى الصاحب فخر الدين بن مكانس[1] يصف مجلساً للخمـر :

« هل لك ، بسط الله آمالك ، وضاعف تعيمك ودلالك ، في عذراءَ مَصونة كالدرة المكنونة ، فتانةٍ مفتونة ، كأنّ على خدّها فوق ورده ياسمينة ، مُخْدَرةٍ تدهش العقولُ لمُجْتلاها وتعشى العيونُ لضوء سَناها ، مظلومةِ الريق في تشبيهه بالضَّرَب ، وفي اللثّات وفي أنيابها شنَب ، لها من ذاتها طربٌ يغني عن المزامير ، بلقيسيّةِ الجمال ، لها صرح ممرّدٌ من قوارير ، ضرّة للشمس ، تلبس زيَّ البدور ، ليلين ويطربَ بها عيشُ السرور ، ليلتُها من حسنها نهار ، وضوءُ وجهها ليد لامسها سِوار ، عجوزِ الاسم ، صبيّةِ الاستمتاع ، بكرٍ تستخفّ الحليم بكشف القِناع ، تعصّبت بالدّجى طِيبا ، وتلثمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، كريمةِ الأصل والفعال ، حسنةِ المعاني والخِصال ، أديمُها كلّما تعتّق يغلو وورِدُها كلّما مرَّ يحلو ، يخلع الوقورُ في حبّها العِذار ، ويطيعها بالسعد فلَك اللهو الدوّار ، ثملةِ المَعاطف ، تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنما خلقت نشوانة من الطّينة ويزداد ثغرُها طيباً في ساعة السحَر ، وتعرف عينُها المَخفيّةُ بحسن الأثر ، حديثُها السحر الحلال ، وعتيقها خلَع الدلال ، أيامُها أعياد ، وأوقاتُها أقواتُ القلوب والاكباد ، تُطيب عيش الجُلاّس ، وتفرك أذُنَ الوَسْواس ، من القاصرات الطَّرْف في كل قَصْر ، وهي على الاطلاق ذهبيةُ العَصر ، رومية لها بالكيمياءِ معرفة ، مع أنّها بادراكِ المَعارف متصفة ، فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرّة تكتال لك الذهبَ أقداحا ، نديمُها يجدُ في تخاييلِها المملكة ، ويكاد أن يمدّ على الدنيا من لؤلؤ جنّاتها شبكة ، قينةٍ كأنما غنّت الفَلَكَ فنقّطها بالنجوم ، فارسيةٍ تخلّقت بعد أن تقمّصت بياضَ الغيومُ ، تجمَع شملَ الأحباب وتُهذّب الأخلاق الصعاب ، لو خالَطها جبَلٌ لماس ، أو قابلها جماد لَقيل إنّه ناس ، أو قتلت ندَماءَها لما نُسبت الى إياس ، ولقال لسانُ حالِهم : وفيها منافعُ للناس ، وتلطّفت حتى كأنّ رائيَها

---

(١) الاثنان من اواخر العهد المملوكي التركي واوائل الجركسي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سامع تطيب وتطرب . وحتى يكاد يأكل بالضمير وتشرب . تعايرت الاستقصاءات على تكلها النوراني ، وما نعت في خلقها الجناني الروحاني ، فلم يجد الطبن[1] له فيها مدخلا ، لكن منع منها بالتلطيخ تطفلا ، على أنه وارثها بالنعت وفل جدها للأم بلا تتريب . أنماسها مسكبة وطبائعها برمكية ، ومكارمها حاسبه وأنسامها فيصرية ، بكر بخاتم ربها ، وهي ترضع أباها من حلبها فتعد النسخ صبيا . والمشعول خليا ، فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التي لها ثدي كالنجوم عدد ، ونعكست منها المكارم ، لما رأت أكفها بالندى مندفة . غانية ، طعم الحياة في ريقها . وضبق الموت في مباينتها وتطليفها ، لا تزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها . حسراء تخلع توبها على الشدمن ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان ، لا بنهمس البليغ بوسمها ، فالعجز عن إدراك لطمها إدراك لطفها » .

« مطالع البدور للغزولي ١ : ١٥٣ »

الرسالة تكاد تكون شعراً وهي شعر منثور بكثرة صورها وتشخيصها البعاد وبراعة الوصف وتصوير مشاعر المغرم بالخمر ، ثم بما ينثره الكاتب من أبيات الشعر العربية والمستحدثة في عهده ، ويظاهر أن الشاعر استحضر في ذهنه وهو يكتبها جميع ما يحفظ من الشعر الجيد في الخمر . وأسلوبها مسجوع متكلف .

واستخدمت الرسائل في أوصاف الرياض والبلدان ويشمل هذا النوع من الوصف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب المختلفة ولعب الكرة ورمي البندق الذي أصبح يشغل حيزاً مرموقاً في أدب هذا العصر .

وقد بيّن الشهاب محمود ما يجب أن يكون عليه هذا النثر الذاتي من سفات بشكل موجز فقال : انه « مما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب مطلق العنان ، مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولا الى اطلاعه وبلاغته » . (حسن التوسل ، ص ٩٩) .

---

(١) في الاصل المطبوع الطبر . وقد اصلحناها باجتهادنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تناول هذا الموضوع الكتّاب كما تناوله الشعراء . وألف الشهاب محمود رسالة في البندق ذكر أنها « تشتمل على أنواع من الاوصاف ، وفنون من النثر والنظم . يسعى بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدّمه[1] في أي نوع أراد من الطير الواجب »[2] .

ويقول في مقدمتها « الرياضة تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون ، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون ، وتحضّها على أحد حظّها من كل فن حسن ، وتحثّها على اضافة الادوات الكاملة اللسن ، وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطوراً في اللعب ، وتصرفها عن ملاذ السموّ في المشاقّ التي يستروح إليها النصب » .

ثم يتحدث عن خروجه الى الصيد وقت الاصيل فيصف الطبيعة والجداول والطيور والنسائم ، ثم يصف مجموعة من الطيور المصادة بعد أن « أصبحت أنسلاؤها على وجه الارض كفرائد خانها النظام » (حسن التوسل ص ١٠٣ ــ ١٠٤) .

عُني كتّاب هذه الحقبة بوصف أماكن الصيد ورحاب الطبيعة التي يصطاد فيها ووصف حيوان الصيد وعدده وآلاته ومجالس الطعام والشراب بعد الانتهاء منه .

وأكثرُ من عُنوا به مَن كانوا في صحبة سلاطين المماليك وأمرائهم الذين كانوا يعدّون الصيد ضربا من الفروسية ومراناً على القتال واستعداداً له ولذلك نرى الشهاب محمود في رسالته هذه تُعنَى به وبتفضيله على سائر أنواع الرياضة والتسلية ...

ومن عنوا بوصف الصيد أيضا ابن حبيب الحلبي في كتابه (نسيم الصبا)

---

(١) القدمه : قدوم نوع من الطير الذى يهاجر عادة من بلد الى اخرى . والسير الى صيده . والمقاله او المقامة التى يتحدث عنه وعن صيده .

(٢) الطير الواجب : الطير المرغوب في اصطياده والمسموح به ، على مختلف انواعه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو مجموعة مقامات تزيد على الثلاثين • وسنرى انه لا يوجد كبير فرق بين الرسائل والمقامات في العهد المملوكي •

المقـــــامة

المقامات في الأصل معناها المجالس (المطرزي في شرح مخطوط للحريري • و : ٤٥) •

كانت المقامة تلي الرسالة في المكانة وفي درجة الاهتمام بها ، بل فضّلها بعض الأدباء عليها قالباً لإنتاجهم ، وقد اختلفت عما كانت عليه زمن الهمذاني من اختيار بطل خيالي لها وراوية يروي أخباره ، وأصبح الادباء ينسبونها الى أنفسهم مباشرة ويعبّرون بها عن مشاعرهم الخاصة من أفراح وآلام في ثوب قصصي واستغلّوها كذلك في الوعظ الديني وفي الإضحاك واللهو وفي نقد المجتمع والسخرية ببعض الاشخاص •

وقد قامت المقامة بدَور الشعر في الحقب السابقة فتناولت شتى موضوعاته وشاركت بذلك الرسالة وقامت معها بدور المقالة في عصرنا •

ويرى « نيكلسون » أن المقامة كانت خطوة نحو الفن القصصي الذي لم يكن ، في رأيه ، موجوداً عند الساميين • (نيكلسون ، تاريخ الأدب العربي ص ٣٢٨ بالانجليزية) وقد وافقه بروكلمان في ذلك (تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ١٣٥) وخالفه كاتب المقال عن المقامة في دائرة المعارف الاسلامية • وقد اعتبرت أحياناً في المكانة بعد القرآن لدى المثقفين (لرجع نفسه ص ٣٣٦) •

وقد قلّد بعضهم المقامات لغرامهم بأسلوبها • ومنهم الحسن بن صافي[1] الذي كان يقول : « مقاماتي جد وصدق ومقامات الحريري هزل وكذب » (ارشاد الأريب ٣ : ٧٥) •

وعلق على ذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٦٨) بقوله :

« ولكنْ دون ذلك أهوالٌ » • ومنهم محمد بن يوسف بن نِحرير[2]

---

(١) لقب نفسه بـ « ملك النحاة » (٤٨٩ ــ ٥٦٨) فهو من العهد الزنكي .

(٢) توفي سنة ٦٦١ هـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي وضع مقامة لاحد الامراء وصف فيها الجوارح والخيل والخروج الى الصيد وكلباً من كلابه وغير ذلك .

ومنهم محمد بن الحسن بن سبّاع المصري (ت ٧٢٠ هـ)[1] الذي وضع المقامه الشهابية (بغيه الوعاه للسيوطي ، ص ٣٤) ..

ومنهم أحمد بن علي بن الزبير الغساني (ت ٥٦٣ هـ)[2] الذي ألف كتابه (المقامـات) .

ومنهم الشاب الظريف (٦٧٢ هـ) الذي ألف مقامات العساق ووصف فيها حبه وخروجه الى الرياض والنقاءه بعاشقين وحديثه معهما .

وجرى على نهجه الشهاب محمود (٧٢٥ هـ) فألّف « مقامه العشاق » .

وكثر التأليف في سرح مقامات الحريري ومنه « المطول » في شرح المقامات لابن ظفر (محمد بن عبد الله ت ٥٦٥ هـ) . و « التنقيب عما في المقامات من العريب » له أيضا . ومنه شرح عبد الكريم البعلبكي (ت ٦٠٠ هـ) .

وهذا مقطع من مقامة لمحمد بن يوسف بن نحرير

(ت ٦٦٥ هـ) قال :

« خرج يوماً مع أناس ، قد واصلوا برهم بإيناس ، كل منهم يهتزّ للأكرومة ويأوي الى سرف أَرومة ، على خيل مسوّمه ، متقفّه مقوّمه ، ما بين حَوْنٍ أدهم ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سنان ، أو انعطف لعِنان ، ظننته عند مُواصله ، أو انفصل عن مَفاصله ، واستقرّ كالطِّراف ، عبْل الاطراف ، وأشهبَ كربم ، له سالفةٌ ربم ، كأنما خُلق من عمق ، أو تردّى برداء من

---

(١) اشهر بـ « ابن الصائغ » (٦٤٥ ـ ٧٢٠ هـ) وهو محمد بن حسن بن سباع بن ابى بكر الحذامى . أبو عبد الله ، شمس الدين ادب عالم بالعربيه مصرى الاصل ، دمشقى المولد والوفاة . له ايضا قصيدة نحو الفى بيت فى الصنائع والفنون وله ديوان شعر .

(٢) اشهر بلقب : الغاضى الرشيد . دعا لنفسه بالخلافة . حارب مع صلاح الدين فى الاسكندرية وقتله شاور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شقيق ، ان أوردتـه الطرادَ أوردكَ المُراد ، وكُمَيْتٍ كالطَّود ، ذي وظيف كذراع العَوْد ، يلطِم الارض بزُبَر ، وينزل من السماء بخبر ، وهِملاجٍ أشهب ، ان زجرتَه ألهب ، أديمُه روضةٌ بَهار ، بنظر في ليل من نهار ، ينساب انسياب الأَيْم ، ويمرّ مرورَ الغَيم لا ينبّه النائمَ اذا عَبَر به ، ولا يحرّك الهواء في سَرَبِه ، أخفّ وطأً من طَيْف ، وأوطأ من مِهادِ الصيف ، قال : فلم يزل بنا المَسير ، وكلٌّ منا في طاعة صاحبه أسير ، الى أن قصدنا وادياً كان لعيوننا بادياً ، فما قطعنا منه عرْضاً حتى أتينا أرضاً كأنما فَرْش قرارِها زبرجَد وصيغَتْ آلوانُها من لُجَيْن وعسجَد ، قد رقرقت فيها السحابُ دمعَها ، وأحسنت في قيعانها جمعَها • نسبمُها سقيم ، وماؤها مُقبم ، فهي تُهدي للناشق ، أنفاسَ المعشوقِ للعاشق » •

وجاء في هذه المقامة وصف للكلب :

« دو خَطْم مخطوف ، ومِخلب كصُدغٍ معطوف ، غائبُ الخصر ، حاضر البَصْر ، له طاعةُ التهذيب ، واختلاسُ الذِّيب ، وتلفتُّ مَريب ، وصداقةُ فريب • له من الطِّرف أوراكُه ، ومن الطَّرْف إدراكُه ، ومن الأسد صولتُه وعِراكه ، اذا طَلَب فهو مَنون واذا انطوى فهو نون » •

« الطالع السعيد ٦٤٣ ، والادب المملوكي ٢ : ١٩ »

هذا الجزء من المقامة يبيّن ان المَقامة التي أخذ منها لم تحتفظ من مُقوِّمات المقامات الا بالاسلوب المرصّع بالصـور البانية والزخارف البديعية ، وانها ليست قصة محبوكة وليس فيها بطل أسطوري ولا راوية ولكنها أسهل من ألفاظ الحريري وأرقُّ وأقربُ فهماً ، على أنّ نصيبها من الخيال أقلّ •

وقد استُخدمت المقامـةُ في وصف الكوارث كما استُخدمت في وصف الطبيعة •

قال ابن الوردي (عمر بن مظفر ، ت ٧٤٩ هـ) يصف الطاعون ، من مقامة :

« اللهم صلِّ على سيدنا محمد وسلّم ، ونجِّنا بجاهه من طغيان الطاعون وسلِّم ، طاعونٌ روّع وأمات ، وابتدأ خبرُه من الظُّلمات ، فواهاً له من زائرٍ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من خمسَ عشرةَ سنةً دائر ، ماصين عنه الصّين ، ولا منَعَ حِصن حصين ، سلِمَ هنديّاً في الهند ، واستد على السّند ، وقبض بكفّيْه وشبّك على بلاد آرْنك ... وقهر خلْقاً بالقاهرة ، وتنبّهت عينُه لمصر فإذا همْ بالساهرة وأسكن حركة الإسكندرية ، فعمل شُغْل الفقراء مع الحريرية :

اســـكندريةُ ذا الوبـــا سبُع بسـدّ إلـــك ضَبْعَهْ

صـــبراً لقســـمتِه التـــي تركـــت من السبعين سبعَهْ »

« الادب المملوكي ج ٢ : ٢١ »

وهو هنا يصف ما أحلّه الطاعون من بلاء في ستى البلاد ويصف تنقّله فيها .

وقد استخدم الادب العامي المقامة كما استخدمها الادب الفصيح .

ومن النثر العامي **مقامه هزليه لسرف الدين بن أسعد** (ت ٧٣٨ هـ) رواها الصفدي[1] . وهي من مقاماته الطريفة . وكان شرف الدين عامياً مطبوعاً قليل اللحن منها : « اجتاز بعض النحاة ببعض الأساكفه ، فقال أبتَ اللعن ، واللعنُ يأباك ورحم الله أمّك وأباك ، وهذه نحيه العرب في الجاهلية قبل الاسلام ، ولكنْ عليك أفضل السلام ، والسلام ، ومثلك من يُعَزّ ويُكَرم ... » ثم يسرد عليه قراءاته في كتب العلم واللغه والنحو وينتهي الى الغرض الذي جاء من أجله الى الاسكاف فنقول : « وقد دعتني الضرورة اليك ، ونمثلت بين يديك لعلك تتحفني من بعض حكمتك وحسن صنعتك بنعل يقيني الحر ويدفع عني القرّ ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً لأتخذك رفقاً ، فيه لغات مؤتلفة ، على لسان الجمهور مختلفة ، ففي الناس من كناه بالمَداس ، وفي عامة الأمم من لقّبه بالقَدَم ، وأهل سِرْنوزة سمّوْه بالشرموزة ، واني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثمَ في ذلك ولا لَوْم ، والثالثة به أولى ، وأسألك أيّها المولى أن تحفني بشرموزة ، أنعمَ من الموزه ، وأقوى من الصوان ، وأطولَ منطقة ، ثابتهٍ في الارض الزلِقة ،

---

(١) واوردها ابن شاكر في « فوات الوفيات » . وهو يترجم لكاتبها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علتها من جلد الأفيلة الحصير لا القطير ، أطول عمراً من الزمان ، خالية الحواشي ، مطبقة الحواشي لا ينغير وشيها .

فلما أمسك النحوي عن كلامه ، وتب الإسكافي على أقدامه ، ونمشى ونبختر ، واطرق ساعة وتفكر ، وتنمدد وتشمر ، وتحرب وتنمر ، ودخل حانوته وخرج ، وقد داخله الحنق والحرج . فقال له النحوي : جئت بما طلبته ؟ قال لا ، بل بجواب ما قلته . ففال : قل وأوجز وسجع ورجز . فقال : « أخبرك أبها النحوي ، أن البشر سنجوري سطباب المنفوقل ، والمتيعب من جانب الشر شنكل ، والدبوك تصهل كنهبق زفازبق الصولجانات ، الخ » .

« ويورد كلاماً مسجوعاً لا معنى له على تلك الصورة حتى يقول » : « أعبذك بالزحزاح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأرقيك برقوات مرفان قرفرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون .

ونزل من دكانه مستعبناً بجبرانه ، وقبض لحية النحوي بكفته ، وخنقه بإصبعيه ، حتى خر مغشياً عليه ، وبربر في وجهه وزمجر ، ونأى بجانبه واستكبر ، وشخر ونخر ، وتقدم وتأخر . فقال النحوي الله أكبر الله أكبر ، ويلك ما هذا الغثيان ، قال من هذا الهذبان ، والسلام » .

بنقد شرف الدين بن أسد في هذه المقامة تقعر النحويين في استخدام اللغة العويصة والصناعة البديعة البيانية في غير مكانها على ما لا يوافق مقتضى الحال ، ويستخدم أسلوب النحاة نفسه مبالغاً فيه مجسماً عيوبه باستعمال ألفاظ مخترعة لا معنى لها ، واختيار موضوع لمقامته هو تصليح حذاء . والنقد خفيف الروح يصلح أن تكون لمحة نشيلة للإضحاك القائم على اللفظ والحركة والشجار والسباب .

خيال الظل

ومن الفنون الادبية التي راجت أو وجدت في هذه الحقبة خيال الظل .
(تحدث عن خيال الظل في العصر الحاضر الدكتور فؤاد حسنين في كتابه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الفصص الشعبي » وأحمد تيمور باشا في كتابه « خيال الظل » والمستشرق جورج يعقوب في بحثه عن خيال الظل وكتاب :

(Studies in the Arab Theatre and Cinema 1958. England, London Jacob M.) .

عرف هذا الفن في الشرق العربي ، وبخاصة مصر ، منذ العهد الفاطمي . ولكن الذي وصل الينا من نصوصه يرجع الى عهد المماليك الاتراك وهو بابات (أو مسرحيات اذا صحت التسمية) لابن دانيال (ت ٧٤٠ هـ) تنوع في فوالبها بين الشعر والنثر والزجل . وخيال الظل هو ما يسمى اليوم في الشام بـ (قره غوز) خطأ[1] ومما يدل على أنه كان معروفا لدى الأيوبيين ما ذكره ابن حجة (في ثمرات الاوراق ، ص ٣٠) من ان صلاح الدين أحب أن يري القاضي الفاضل خيال الظل فأتاه من القصر (الفاطمي سابقا) بمن يعالجه ، فقام القاضي عند الشروع فيه ثم قعد مسايرة للسلطان فلما انقضى سأله عن رأيه فيه ، فقال :

« رأيت موعظة عظيمة ، رأيت دولاً تنصبي ودولاً تأتي ، ولما طوي الستار اذا المحركُ واحد » .

وفي هذه الرواية نظر لأن القاضي الفاضل أسبق من صلاح الدين وجودا في مصر واختلاطا بالفاطميين فكيف لم يعرف خيال الظل من قبل ، الا ان يكون النظر اليه في زمنهم كان مقصورا على الملوك أو انه كان شائعا معروفا لدى الناس ، ولكنّ القاضي الفاضل كان يتورع عن مشاهدته ، أو انه لم يحب ان ينصرف السلطان لمثل تلك الحال من اللهو والعدوّ رابض في البلاد .

وكان يستخدم فيه ما يسمى بالبابات وهي عرائس من الورق المقوّى أو الجلد تحرّكها مدربون عليها ، وربما دربوا الجواري على تحريكها يدل ذلك على قول أحدهم :

---

(١) قره غوز هو ما يسمى اليوم بالفصحى « مسرح العرائس » لأنه يتكون من دمى وتماثيل من خشب او جصّ تحرك بخيوط لا يرى الظارة محرّكها . وقد اطلق العامة في الشام اسم قره غوز على الصور المفصوصه من الورق المقوى او الجلد المضغوط والتي تقع خيالاتها بواسطة نور وراءها على الشاشه أمامها . (مسرح عربي قديم « كراكور » لعادل ابى شنب ، ص ٣١ و ٣٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرتنـا خيـال الظـل والسـتر دونهـا
فأبـدى خيـال الشمـس خلـف غمـام

تلعّـب بالاشـخاص مِن خلف سـترها
كمـا لعبـت أطرافهـا بأنـام

« مطالع البدور للغزولي ١ : ٣٦١ »

وقد وصل الينا من مسرحيات ابن دانيال العرائسيه ثلاث هي طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم . وتدل موضوعاتها على أنـه وضعها زمن الملك الظاهر بيبرس بعد أن حرّم هذا شرب الخمر وتناوُل الحشيشة وعاقب عليهما بالقتل والصلب . وهي عقوبة تجاوزت الحدّ الشرعي المعروف .

طيـف الخيـال :

تتلخص هذه المسرحية في أن أميراً من أمراء الجند ، اسمه وصال ، يرغب في أن يتزوج امرأة من ذوات الحسب والجمال . ويلجأ الى الخاطبة أم رشيد ، فيفاجأ حين الزفاف بقبح العروس ، وتثور ثائرته ، ويهدد أم رشيد وزوجها بالقتل ، ولكنه يعود فيرى أن ما حصل تكفير عما ارتكبه من المعاصي سابقا ، ويصمم على التوبة والحج ليتطهر من ذنوبه .

ويورد ابن دانيال قبل بدء المسرحية مقدمة يمهد بها لها ، تتلخص في أنه جاء من الموصل فوجد أن الخمر والحشيشة وسائر الفواحش قد حرمت وأن ابن الكازروني قد وجد مخمورا فشنق ، وأن صديقه المضيف قد اعتذر عن تقديم الخمر اليه بسبب ذلك وذكر له أن أبا مرة أي ابليس قد مات ودعاه الى رثائه فرثاه بسينية طويلة منها :

مات يا قـوم شـيخنا ابليـس وخـلا منـه ربعـه المأنـوس
ما لنـا بعد ذلك الشيخ إلْف وسـمير ومؤنـس وأنيـس
ما لنا لا نرى فنىً ضاحك السن وكـلٌ يبـدو لـه تعبيـس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي هذه المقدمة نقد واضح لمرسوم الملك الظاهر ، اتخذ شكل الاضحاك والسخرية .

يقدم ابن دانيال شخصيته الاولى ، وصال ، فيجلع عليه كل أنواع الفساد المعروفة في العصر من مألوفة وشاذة : يفترس أكثر من السبع ، ويشرب أكثر من الرمل ، وانه أظهر من كوكب وأدور من لولب . ويعلق طيف الخيال على ذلك ساخراً (إنّ من يترك تلك الآثار لا يموت) .

ويتداخل الراوية الذي هو أيضا طيف الخيال فيعلق بين الحين والحين . أو يناجي ، أو يقدم الاشخاص ، أو يحدّث خلال تسلسل المشاهد التي يلتقي فيها البطل مع أشخاص آخرين ويتحدث معهم .

ويمزج ابن دانيال بين النثر والشعر في هذه المسرحية . وهذا مقطع صغير منها :

« تلبي أم رشيد نداء طيف الخيال فتأتي ليقول لها :

يقول طيف الخيال : طلبك الامير وصال .

فتقول أم رشيد : ونعم من الامير وصال ، الذي رُبّي في النعيم وفي الدلال ، رحم الله أباه ، ورحم أمّه ومن ربّاه .

فيقول الامير وصال : يا خالتي أم رشيد ، كيف نعم الله عليك ، ولقد كنت ، قسما بالله ، مشتاقا اليك وما طلبتك الا لتزوجيني ، والى غيرك فلا تحوجيني ، وأريد هذه العروس تكون دريّة اللون ، حسنة الكون ، ملفوفة اليدين ، لا رقيقة ، ولا مفرطة في السمن ، أسيلة الخد ، قائمة النهد :

بيضاء مصقولة الخدين ناعمة كأنها لؤلؤ في الخدر مكنون

حسن جرى قلمُ الباري فأبدعه خطّا تحار لمرآه الدواوين » .

* * *

ومن الفنون الأدبية التي ظهرت خلال هذه الحقبة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فـــن المقامات الادبيـــة

الفضل في ظهور فن المقامات الأدبية لمحمد بن محرز الوهراني الذي رحل الى الشرق وزار الشام زمن نور الدين ، ومصر زمن صلاح الدين ، واستقر أخيراً في داريا خطيبا لمسجدها حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ . ومناماته مطبوعة[1] .

ذكر ابن خلكان ان الوهراني حين جاء الى الشرق شعر أنه ليس من طبقه القاضي الفاضل والعماد الكاتب فعدل عن طريق الجد الى الهزل .

وأهم ما في مناماته المنام الكبير الذي أعجب به ابن خلكان فقال : « لو لم يكن فيها الا المنام الكبير لكفـاه » (وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥١٨) .

سلك في هذا المنام مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران ولكنه كان أبعد عن التكلف وأوضح مقصداً وجمع فيه مثله بين الهزل والجد .

تخيل الوهراني أنه نفخ في الصور وأنّ القيامة قامت وقام العرض أمام الله وقام هو سلهم في ذلك الهول العظيم واستطاع أن يعرف على كبيرين مسّن عاصروه وأن يتحدث عما يحاسبون عليه يومئذ ساخرا بهم .

وفي « رقعته » عن مساجد دمشق يتخيل ذهاب مساجد دمشق كلها الى مسجدها الكبير واحتماعها تحت قبته شاكية ، وهناك يتحدّث كل منها عما أصابه من ضياع وإهمال ونهب وخراب وهكذا .

فيشير عليها مسجد دمشق الكبير بالشكوى الى قاضي القضاة ابن أبي عصرون فتشكي اليه حالها ونعاتبه فإن لم يستجب لها فالسلطان أمامها ... ويقابل القاضي فيغضب من هذه الرقعة وينتم المسجد الجامع فيرفع هذا أمره الى نور الدين فيلبّيه ويصلح أحوال المساجد ويتحّي قاضي القضاة عنه ويقرأ عليه (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . والسلام ..

---

(١) يرجع له كبروكلمان . منهم : ابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٥١٨ . والزركلي في الاعلام ج٧ : ٢٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النقد على لسان المساجد حمد والاسلوب طريف وهذا الوزل الساخر اشد تأثيراً وفتكاً من الجد • وهو نقد اجتماعي يوجه به صاحبه صد عامل من أكبر عمال الدولة • وقد سار على غرار الوهراني في هذا النقد الشاعر الدمشقي ابن عنين في « مفراض الاعراض » • والحق أن الوهراني فتح فتحا جديدا في النثر العربي • وقد قدم الدكتور عبد العزيز الأهواني لكتاب « منامات الوهراني » بمقدمة مفيده يجدر الرجوع اليها كما تحدث عنه الدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد الاربعين ج ١ ، ص ٢٤٣ حديثاً قيماً نحس مطالعته •

ومن حسنات الوهراني أنه تجنّب الصناعة في كتابته •

مميّزات النثر

كان الادب الذي قبل في الحروب الصليبيه يمتاز بأمرين : القوة والصدق • وهو بذلك يستثير الاعجاب •

فقد عبّر عن عواطف العامه والخاصة ، ورسم للقادة خططهم وصوّر الآمال والآلام وعبر عن الرأي العام الإسلامي في عصره • ولم تكن الزينه أهمّ ما في هذا الادب ، كان الأهم منها قدرته على الايحاء والتأثير ، وتصوير الوقائع والتغني بالبطولة والاعجاب بالقوه والشعور بها ، وإلهاب العواطف ضد الاعداء ، وتخفيف حده الهزيمة حين وقوعها ، وبعث الامل وطرد القنوط ، واذاعة الفرح والبشرى حين النصر وقذف الحسرة في قلوب الاعداء •

وقد سابر الادب الاحداث منذ نجاح الحمله الصليبيه الاولى في الاستيلاء على الساحل فاستبار الهمم وصور أبعاد المعركه وابكى القلوب •

ثم سار مع الابطال عماد الدين ونور الدين [illegible]
والاشرف خليل بفرح للانتصارات ويواسي في الهزائم ويبكي للاستشهاد [illegible] دلت كله مصطرم العاطفه عميق الحس • وكان السمر منه ماثلا أمام الناظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى ملإٍ من الناس . ويذاع في المحافل ، أما النثر فلم يكن يكتب للناس جميعهم وانما كان يكتب لخاصة الخاصة من طبقة الحكام فقد كان الكتاب مشاركين في تدبير الدولة والاعداد للحرب فاستطاعوا أن يطّلعوا على ما لم يطّلع عليه غيرهم وأن يصفوه ، ولكن دائرة ذيوع أدبهم كانت محدودة .

كان الشعر يقوم مقام الصحف اليومية في أيامنا . أما النثر فكان يقوم مقام الوثائق والتقارير الرسمية السياسية والحربية التي يرسلها الحكام والقواد الى الخليفة أو غيره من أولي الشأن .

ولما كان هذا النثر قد كتب للخاصة فانه كان من حيث الاسلوب أعقد من الشعر في كثير من الاحيان . ولقد أصبح تكلف الاسلوب عاده لدى كتّاب الدواوين حتى إن التاريخ نفسه لم يسلم حين يكتبه أحد هؤلاء من تعقيد الاسلوب . كما رأينا في كتابي العماد الاصفهاني : « الفيح القسي في الفتح القدسي » و « البرق الشامي » . وقد رأينا كيف نقد أسلوبهما ابن شامة وخلّص أسلوبه مما فيهما من الصناعة المملّة .

وقد ألفت في هذه الحقبة كتب كثيرة مختلفة الاساليب في عدة موضوعات ، لتذكّر الأمة بمجدها وتستثير هممها وتجعلها تتلمس مواطن القوة من نفسها لتوجهها ضد أعدائها . ومنها كتب التاريخ ، والشيم والمناقب ، وفضائل البلدان ، وكتب الجهاد والفروسية . وشاركت الخطابة في تكملة وعيها وتدعيم ارادتها وتنظيم قوتها وتحسين اعدادها وتمتين تعلقها بالاهداف السامية التي تؤمن بها .

وقد فعلت هذه الكتب في النفوس ، معتمدة على القرآن والحديث والتاريخ ، ما تحاول أن تفعله الصحافة والاذاعة اليوم ، في حروبنا ضد أعدائنا . وقد استطاعت هذه الكتب أن تحمل المسلمين على الصبر حتى النصر . وقد عرف السلاطين المخلصون الواعون للكتابة حقّها فقال صلاح الدين ، على سبيل المثال ، لقوّاده : « لا تظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل » .

« مرآة الزمان ٨ : ٤٧٢ »

كانت ثقافة العصر دينية ، وكانت منصرفة في أغلبها عن الفلسفة ولذلك لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظهر غير الأثر الديني في أدب هذا العصر الا قليلا . ولم يستطع الادباء أن يسلكوا كما فعل أبو تمام من حيث تحويله عناصر ثقافته الى فن شعري مستساغ .

وقد أضفى البديع على الشعر والنثر في هذه الحقبة طابع الفن المفسد ، وأساء الى معاني الادب في هذه الحقبة أحيانا فجعلها غامضة .

ويظهر أن بساطة المعاني وهدوء العاطفة هما اللذان أتاحا للكاتب أن يهتم بالصناعة البديعية . فقد رأينا القاضي الفاضل نفسه حين تشغل فكره بالمعاني يهمل الصناعة اهمالا يكاد يكون كلياً ولا يورد منها الا ما يأتيه عفو الخاطر . فالقاضي الفاضل هو الذي أمسك صلاح الدين عن الانهيار . ولو انهار صلاح الدين لما أفادت تلك السيوف والرماح . لقد كان القاضي الفاضل مقيماً غالباً في مصر يباشر أمورها ويرسل الى صلاح الدين بما يجدّ فيها ويصحح ويجدّد ويبشّر وينبّت ويبصّر . وكان صلاح الدين يستمع الى قوله الذي يظهر عليه دائما نبرة الاخلاص والصدق .

فلا يجوز لنا أن نتهم الادب في تلك الحقبة بانه لم يؤد مهمته ، ولكن الادباء كلهم لا يمكن أن يكونوا القاضي الفاضل في جميع لحظاتهم ، كما أن القاضي الفاضل نفسه لا يمكن أن يكون دائما على مستواه نفسه في بعض لحظاته .

وقد كسبت الأمة الحرب على أعدائها بالسلاحين المادي والمعنوي .

لقد كان الاسلوب في الدواوين عبد الصناعة البيانية والبديعية . ولكننا نستشف من بين ألفاظه وتعابيره مشاعر مكبوتة تريد لنفسها الانطلاق ، فاذا تركنا الجوّ الديواني المقيّد الى الجو الشعبي . ظهر لنا أدب شعبي قصصي وعظي جديد بعيد عن القصور والدواوين استمدّ وجوده من الشعب الذى أقبل عليه لانه منه وإليه واستطاع أن يتخلّى عن التصنع في الاسلوب الذي عجز بعض كتاب الدواوين عن التخلي عنه . ولكنه قارب العامة في سهولة ألفاظه ووقوع بعض الخطأ النحوي فيه في أواخر العهد الايوبي ، وصار أقرب اليها في العهد المملوكي الاول ، وأشد قرباً في العهد المملوكي الثاني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظهر لنا كذلك فنّ المنامات الادبيه على يد الخطيب الوهراني ذي الاسلوب الحر . وذلك في أواخر العهد الزنكي .

خصائص الكتابة في هذه الحقبة :

كان التطويل من سمات كتّاب هذا العصر وقد أخذه عليهم أبو سامة صاحب كتاب الروضتين الذي رأى أن البلاغة الايجاز كما فهمها العرب الأقدمون .

وكان من سماته ولا سيما في فن الرسائل الاكثار من عبارات المديح والإطراء والذلة والخضوع مثل : « الخادم يقبل الارض بين يدي المولى ، أو المملوك يرى كذا أو الخادم يقول كذا » .

ومثله ألقاب الفخامة التي كانوا يطلقونها على الملوك فيقولون : الملك المرابط معزّ الإسلام مذلّ الشرك محطّم الطغيان ناصر التوحيد سيف الله حامي الملّة ... الخ .

وقد أكثر الناس من الاسماء التي تضاف الى الدين مثل نور الدين وشمس الدين وعزّ الدين ... الخ .

وأطلق على العلماء والشعراء ألقاب تضاف الى الدين أو الى الاسلام مثل : حجة الاسلام أو الدين وضيائه وتاجه وسراجه وجماله وشرفه ...

وأطلق على القواد ألقاب مناسبة تضاف كذلك الى الاسلام أو الدين مثل : سيف الاسلام وحسامه وركنه وسهمه ودرعه .

وكانت الكتابة الديوانية تتفاوت قوة وضعفاً وحرية في الاسلوب وتكلفاً بحسب الموضوع الذي يعالجه وبحسب الكاتب أو المترجم .

وكان همّ الكتّاب أحياناً أن يظهروا للسلاطين وأولي الامر براعتهم الإنشائية وبلاغتهم لسالوا إعجابهم ويشعروهم بمكانتهم في دولتهم وأنهم لا يمكنهم الاستغناء عنهم .

ويمكن أن نسير في هذه الحقبة ثلاث طرق . طريقة القاضي الفاضل المغرقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الصناعه التي بمثلها الخطيب الحصكفي في التمام ، وطريقة ابن الأثير المعتدلة التي سار عليها في مصر أكثر الكتّاب باستثناء القاضي الفاضل وابن سناء الملك . وطريقه ابن ظفر الصقلّي في الشام وقد اتبعها كثيرون . وهي أقل صناعة وأكثر اعتماداً على التصوير وعلى ايراد الشعر المستشهد به من نظم الكاتب وغيره .

لم يأت القاضي الفاضل بطريقة جديدة في الكتابه ، وانما سار على طريقة الحريري التي كانت معتمدة في الدوله الفاطميه التي نشأ في ظلها . وانما نسبت هذه الطريقه إليه لمكانته في الدوله حينئذ ولمبالغته في التكلّف البياني والزخرفة البديعية ولكثرة ما كتب في الموضوعات السلطانية وغيرها . وقد قلّده كثير من الكتّاب فشملت الصناعة البلاغة أكثر ما يكتب حتى الفصص[1] والمناشير الموجهة الى العامه ، وبعض عقود الزواج الخاصه بالعظماء وأولادهم . والإجازات العلمية التي تمنح للطلبة .

وكان السجع هو الفن البديعي السائد ولكن بعض الأدباء نقدوا المبالغه فيه ومنهم السبكي الذي أورد بعض النوادر عن النحويين المتفعّرين المتكلفين . وذكر ابن حجه افتنان الناس بالتورية وأنها تسمى بأسماء كثيرة كالايهام والتوجيه والتخيير ولكن اسم التورية أحسنها لأنه يدل على معناها ، وأن القاضي الفاضل هو الذي عصر لأهل عصره سلافة التورية وان القاضي ابن سناء الملك تابعه فيها .

ويظهر ان صلاح الدين الصفدي كان أكثر ولعاً بالجناس ولم يرض دلك أستاذه ابن نباته الذي حرّف اسم كتابه من «رجنان الجناس» الى «جنان الخناس» نقدا له وتعبيرا عن الاستياء منه .

واهتم أدباء العصر بالاقتباس من القرآن والحديث وتضمين الشعر القديم والمثل السائر والنوادر وقصص العرب وحكاياتهم وأخبارهم . وأحيانا كانوا يوردون الكلام كما هو ، وأحيانا كانوا يكتفون بالإشارة إليه .

---

(١) المراد بالقصص في لغة ذلك العصر العرائض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الموسوعات[1]

كتاب « صبح الاعشى للقلقشندي »

أ - القلقشندي والموسوعات :

كانت مصر والشام يستقطبان معا الحركة العلمية الادبية فلما خربت ديار الشام في عهد المغول انتقل الاستقطاب الى مصر واصبح هم العلماء انقاذ الثقافة العربية الاسلامية عامدين الى ذلك أو منجهين بما تحت الشعور . وكان من محاولات الانقاذ تأليف كتب كبيرة أو دوائر معارف في شتى العلوم وكان لها دور الحفظ الثقافي والإحياء العلمي الادبي .

وكان هناك حافز آخر لتأليف الموسوعات وهو حاجة كتّاب الدواوين الى ثقافة عامة واسعة ليلمّوا بكل شيء يتعرضون الى الكتابة فيه ، ولرفع مستوى الديوان الفكري فقد كان هذا الديوان الدماغ المفكر للحكم المملوكي كما كان كذلك لجميع أدوار الحكم قبله ، ولكن جهل الملوك المماليك جعل قيمته في عهدهم أكبر .

وكان حلم أمل المثقفين أن يعملوا في هذا الديوان أو في بعض المناصب الاخرى ذات الهيئة الكبيرة كالقضاء والخطابة والتدريس .

ولقد نجح القطران مصر والشام في معركتهما الثقافية نجاحهما في معركتهما السياسية ، وزاد التأليف فيهما اتقانا وحسنا بأن أصبح حسن التنظيم والترتيب والتبويب موحّد الموضوع وتخلص من الفوضى والاستطراد اللذين كانا يسودانه زمن الجاحظ وابن قتيبة والمبرد ومن بعدهم ، وعني فيه بالاختصاص بالموضوع والالتزام به دون الاستطراد الى غيره ، وتقاسم العلماء التأليف في الثقافة الاسلامية دون سابق اتفاق .

بعضهم انصرف الى التأليف في الثقافة الادبية كالنويري في كتابه « نهاية

---

(١) نرجح أن يستبدل بكلمة « الموسوعات » كلمة « المعلمات » أو « دوائر المعارف » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرب » وبعضهم ألّف موسوعه في الثقافة الجغرافية كابن فضل الله العمري في كتابه « المسالك والممالك » .

وبعضهم ألّف موسوعه في الثقافة اللغويه كابن منظور في معجمه الضخم « لسان العرب » .

ووجدنا لزاما علينا أن نقف وقفة مطوّلة أمام هذه الموسوعة الديوانية القسة المسماة « صبح الأعشى » للقلقشندي .

لقد كان هؤلاء المؤلفون يمثلون ضمير الأمة الحي المستيقظ لحفظ تراثها الخالد . وهم يمثلون في الوقت نفسه يقظة الفكر العربي غير الاعجمي الذي صُرف عن السياسه والحرب مضطرّاً فانصرف الى العلم والادب يبدع فيهما ما شاء له الابداع . وكان موقف هؤلاء العلماء الادباء أدعى الى التقدير في نظرنا من مواقف رجال السياسة والحرب على جلالها وعظيم فائدتها واعترافنا بفضلها ، ذلك لأنهم استطاعوا أن يحفظوا الفكر العربي من الفساد والانحراف وأن يقوموا بدورهم في التوعية والتوجيه المعنوي خير قيام .

ولكننا نحبّ أن ننبّه الى أنّ التأليف في هذه الموسوعات اذا كان قد حافظ على وحدة الموضوع فإنّه لم يسلم من شيء آخر هو مزج العلم بالادب وبالاخبار الدينية فترى المؤلف اذا أراد مثلا أن يتحدث في النجوم ذكر ما جاء فيها من القرآن والاحاديث وما جاء فيها من الشعر والحكم والأمثال والآثار ، ثم ما قاله العلماء مورداً رأيه الخاص أو مكتفياً بايراد آراء غيره ومفدّماً بعض هذه العناصر على بعض ومؤخّرا بعضها مع المحافظة على خطة يسلكها . وقد يكون لهذه الطريقة فائدتها في دفع الملل ، وجمالها في مزج جِدّ العلم بذوق الأدب ورونقه .

ونحبّ أن نوصح ما نريد من تحوّل التأليف من الاستطراد والفوضى الى التنظيم والترتيب فقد كانت الثقافة قبل العصر المملوكي ثقافة اسلامية تكونت من مزيج من الثقافة العربية الدينية المتمثلة بعلوم اللغة العربية والقرآن والحديث النبوي وأمثال العرب وحكمها وشعرها وخطبها وسائر نثرها وعلومها وتجاربها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ثقافات أخرى كالفارسية واليونانية والهندية ، وثقافة الأديان الاخرى ولا سيما اليهودية والمسيحية .

وقد اقتبس العرب هذه الثقافات عن طريق الاحتكاك بأهلها والتفاعل معهم والمرحلة من كتبهم ووجود مراكز ثقافية لبعضها كمدارس حرّان والاسكندرية وجنديسابور بالنسبة الى الثقافة اليونانية ، واتخاذ وزراء أو قوّاد من بعض الاقوام الاخرى كالفرس والترك ، والمناقشات الدينية المسيرة مع أهل الذمة من يهود ونصارى وصابئة ، والاطلاع على كتبهم الدينية . وقد مثّل هذه الثقافة المختلطة الجاحظ في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » ، وابن قتيبة في كتابيه « عيون الاخبار ـ وأدب الكاتب » وأبو الفرج الاصبهاني في كتابه العظيم « الاغاني » ، وابن سعيد في كتابيه « المغرب في حلى المغرب ـ والمشرق في حلى المشرق » .

وكان الأدب في ظل هذه الثقافات مفهوم فضفاض اتّسع للصيد وألعاب الفروسية ولعب الشطرنج والضرب على العود وكان الاديب هو الذي يأخذ من كل فن بطرف ، ولذلك نرى الحسن بن سهل أحد وزراء المأمون العباسي يقول في عهد مبكّر : « الآداب عشره : ثلاثه شهرجانيه ، وثلاثة أنوشروانيه ، وثلاثة عربيه ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية ، فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الفارسية فالطب والهندسه والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحده التي أربت عليهن فمقطّعات الحديث والسير وما يتلقّاه الناس في المجالس » (عن أحمد أمين ـ ... الاسلام ، ج ١ ص ١٦٩ . ١٧٠ ، وعن القلقشندي لعبد اللطيف حمزة ، المقدمه) .

وربما كان يقصد بالشهرجانيه « المدنيّة » نسبة الى شهر في الفارسية بمعنى مدينة . وهذه الصورة من فهم الادب فهماً واسعاً هي التي جعلت المؤلفين الاوائل الذين ذكرناهم (الجاحظ ، وابن قتيبه ، والمبرّد) يجمعون بين العلم والادب وينتقلون من الشعر الى الحكمة الى النادرة الى التاريخ الى الخطبة ، الى الفلسفة الى قصص البخل ، وقد سار المؤلف على هذا الغرار كما يقول الدكتور عبد اللطيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمزه في كتابه عن صبح الاعشى للقلقشندي حتى غزو التتار بغداد • وحينئذ بدأ التأليف المنهجي القائم على التنظيم الدقيق والتبويب والتقيد بالموضوع •

ولكننا لا نوافق الدكتور المرحوم عبد اللطيف حمزه على حكمه بأن هذه الطريقة مصرية ترتبط بجذور التاريخ المصري القديم قبل الاسلام ، وأن الطريقة الفوضوية التي كانت قبلها طريقة عراقية فهذا التفريق الإقليمي لبس حقيقة واقعة في التراث العربي الاسلامي • والذي أدّى في رأينا الى وجود الطريقة الجديدة هو وقوع الاحداث الجديدة في العالم العربي ، ومنطق التطور الطبيعي الذي يؤدي الى تحسن التأليف وفق منطق التجربة والخطأ والتصحيح ، ودليل ذلك أنّ منطق الترتيب والتبويب قد سبق العهد المملوكي بزمن طويل في مجالات التأليف في العلوم المترجمة والفلسفة وفي علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة واللغة وفي العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث •

ومنطق ارجاع التجديد في أسلوب التأليف الى فدماء المصريين يحرم المصريين العرب وغيرهم في العهد المملوكي من نعمة العقل والتفكير والاستفادة من التجربة ويرجع الفضل الى قدماء المصريين تجنيّاً وعصبية إقليمية •

وقد أمعنت الطريقة الجديدة في التقسيم المنطقي فقسمت الموضوع الى أبواب والابواب الى فصول والفصول الى أطراف والاطراف الى مذاهب والمذاهب الى وجوه •

ويقول المرحوم الدكتور حمزة نفسه بأن هذا يشابه ما جرى قبل في اللغة من جعل الباب لأواخر الكلم والفصل لأوائله في ترتيب المعاجم اللغوية •

فكأن الدكتور حمزة يردّ على نفسه ويعتبر أن هذا التطور التأليفي كان ضمن الإطار العربي العام ولم يخرج عليه •

ترجمة القلقشـــندي :

كان أوسع المؤلفين ترجمة له السخاوي ، على أن ترجمته عنده كانت مفتضبة لا دقة فيها ولا توســع • وهذه ترجمته له كلها : « هو أحمد بن علي بن أحمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن عبد الله التسهاب ابن الجمال أبي اليمن الفزاري القلقشندي ثم القاهرى الشافعي والد النجم الذي سأتي ذكره (في كتاب السخاوى طبعا) » .

« ولد سنة ٧٥٦ هـ ، واشتغل بالفقه وغيره وسمع من ابن الشيخة ، ومن في وقته ، وكان أحد الفضلاء ، ممن برع في الفقه والادب وكتب في الانشاء وناب في الحكم وشرح قطعا من جامع المختصرات ، بل برع في نظمه كذلك ، وعمل صبح الاعشى في قوانين الانشاء في أربعة مجلدات جمع فيه فأوعي ، وكان يستحضر أكثر ذلك ، مع جامع المختصرات والحاوي وكتاب في أنساب العرب ، وهو ممن نظم سيرة المؤيد لابن ناهض ، مع تواضع ومروءة .

« مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة وله خمس وستون سنة . ذكره شيخنا (أي ابن حجر) في معجمه والمقريزي والعيني وآخرون . وسمى العيني والمقريزي والده عبد الله وهو وهم » .

وقال آخرون إنّه برع في العربية ، وعرف الفرائض وشارك في الفقه وسمع الحديث ونظم ونثر وأرّخوا وفاته بليلة السبت عاشر جمادى الثانية » . واختلف من ترجموا له مع السخاوي في اسم أبيه فقالوا إنه عبد الله . وهو ينتمي الى بني بدر من فزارة من قيس عيلان ، القبيلة العربية المشهوره ، وكان بنو فزارة قد نزلوا القلبوبية وغلبوا عليها منذ الفتح الاسلامي . وكان لبني بدر هؤلاء الغلبة على سائر بني قومهم ، ومنهم بنو مازن بن فزارة ، وعلى جيرانهم .

بدأ أبو العباس تعليمه في بلده ثم انتقل الى الاسكندرية وتلقى العلم على مشهورى علمائها واشتغل بفنون العربية والأدب وقد أجازه فيها سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن المشهور بابن الملقّن بالفتيا والتدريس على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه وأجاز له أن يروي عنه كل تأليف له في الفقه والحديث وأن يروي كل ما جازت له روايته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك وكانت سنه إذ ذاك احدى وعشربن سنه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج ـ آثـــاره :

هذا وقد عرض كثير من تلاميذ الفلقشندي عليه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول وعلوم العربية فأجازهم بما حفظوه منها .

عمل الفلقشندي ، بعد أن أجازه شيخه ، في التدريس ، وألّف في الفقه وكان يميل فيه الى الاجتهاد ويطمح الى القضاء . وقد وضع في الفقه الكتب التالية :

١ ــ شرح جامع المختصرات في فروع الشافعية المنسوب الى كمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدي المدلجي (ت ٧٥٧ هـ) .

٢ ــ شرح الحاوي الصغير في الفروع للقزويني نجم الدين بن عبد الغفار ابن عبـــد الكريم الشافعي (ت ٦٦٥ هـ) . وألّف في هـــذه الفترة في الادب كتباً منها :

١) حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم . ألّفه للمقرّ الزيني أبي يزيد الداودار الظاهري سنة ٧٩٤ هـ وكان الظاهر برقوق في هذه السنة قد ولّى أبا يزيد وظيفة الداودارية .

٢) شرحا على قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وقد قال فيـــه : « قد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته (كنه المراد في شرح بانت سعاد) فتح الله بمعان لم أقف عليها في شرح لها من قبل » .

وقد نبغ في الفقه والادب ولفت اليه الانظار فاختير لديوان الانشاء سنة ٧٩١ هـ أي في زمن الظاهر برقوق مؤسس الدولة البرجية . وكانت سنه حينئذ خمسا وثلاثين سنة .

وألّف في هذه المرحلة :

١ ــ مقامة في تقريظ القاضي بدر الدين بن القاضي علاء الدين بن القاضي محيي الدين بن فضل الله . رئيس ديوان الانشاء حينئذ باسم « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » وهي في التعريف بكتابة الانشاء والثناء عليها بأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها وذكر فيها كثيرا من أصول صناعة الكتابة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت موجزة جدا فاحتاج الى شرحها في كتابه « صبح الاعشى » أو طلب منه ذلك .

٢ ــ « صبح الاعشى » الذي استمر في تأليفه زهاء عشرين سنه وانتهى منه في شوال سنة ٨١٤ هـ .

ثم رأى أنّ من الضروري للكاتب معرفة أنساب العرب فألف كتابين في ذلك هما التاليـان :

٣ ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب وقد أهداه الى أبي الحسن يوسف الأموي . وهو بمثابة معجم في الانساب رتبت فيه القبائل والبطون على حروف الهجاء . وقد حققه في العراق الشيخ علي الخاقاني (صاحب البيان) عام ١٩٥٨ مع مقدمة مسهبة في الانساب عند العرب . وقام بتحقيقه في مصر الاستاذ ابراهيم الابياري ونشر عام ١٣٣٢ هـ بعناية سليمان الدخيل (صاحب الرياض) في بغداد .

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، وثانية في مكتبة الدولة ببرلين وثالثة في المتحف البريطاني ورابعة في النجف الاشرف . وخامسة في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد . وسادسة في سورية ، وسابعة في صوفيا . وقد أكمل النهاية وزاد عليها العلامة السويدي عام ١٢٣٩ هـ في كتابه « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » وهو مطبوع على الحجر ببغداد . وقد أثبت الابياري ان الكتاب لأبي العباس وليس لابنه محمد المشهور بالنجم .

جعل المؤلف كتابه ثلاثة أقسام : مقدمة ومقصداً وخاتمة . ذكر في المقدمة ما يحتاج اليه في علم الانساب ومعرفة القبائل وجعلها خمسة فصول : الاول في علم الانساب وفائدته وبيان الحاجة اليه ، والثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر أنواعهم ، والثالث في معرفة طبقات الانساب ، والرابع في ذكر مساكن العرب القديمة التي منها درجوا الى سائر الاقطار ، والخامس في ذكر أمور يحتاج اليها الناظر في علم الانساب . وجعل المقصد فصلين : الاول في ذكر عمود النسب النبوي ، وما يتفرّع عنه من الانساب والثاني في ذكر تفاصيل القبائل مرتبة على حروف المعجم . وتتألف الخاتمة من خمسة فصول :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاول في ديانات العرب قبل الاسلام • والثاني في المفاخرات بين قبائلهم • والثالث في الحروب بين العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام • والرابع في نيران العرب في الجاهليه • والخامس في أسواق العرب قبل الاسلام •

٤ ــ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وقد أهداه الى ابي المحاسن محمد الجهني التسافعي المؤيدي صاحب ديوان الانشاء حينئذ • ذكر فيه أنه استدراك على كتابه السابق « النهاية » بالحذف والاضافة والتعديل وانتهى من تأليفه سنة ٨١٩ هـ أي قبل وفاته بعامين • وقد ألفه بعد « صبح الاعشى » وذكر الأبياري أنّه أحال فيه على الصبح في موضعين مما يبرهن على أنّه ألّفه بعده (مقدمة تحقيق نهاية الأرب للأبياري ص ٤) • وقد نسبه قلائد الجمان الى والد القلقشندي ولكنه له وقد رتبه على حروف المعجم كالنهاية • توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في النجف الاشرف في خزانة الشيخ حسن الدخيلي •

٥ ــ اختصر المؤلف صبح الاعشى في كتابه « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » علما منه بأنه ليس لبعض الناس صبر على قراءة الموسوعة ، وطبع المختصر في مطبعة الواعظ بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ •

٦ ــ للقلقشندي رسائل تزيد على المئة وقد أودعها « صبح الاعشى » • هذا وقد اشتهر القلقشندي بكتابه « صبح الاعشى » دون غيره وهو أهم منها جميعا ومن بينها النهاية •

ولذلك لقي اهتماما من دار الكتب المصرية فأصدرت الجزء الاول منه في أوائل القرن العشرين ولمّا رأت اعجاب الناس به واقبالهم عليه أتمّت اصداره وفق أصول التحقيق الحديثة فخدمت الثقافة العربية خدمة كبيرة • ووجدت وزارة الثقافة والارشاد المصرية أنّ من الضروري تعريف المثقفين ودارسي العربية به فكلّفت المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة بالتعريف بهذه الموسوعة في كتاب نشرته له باسم « القلقشندي في كتابه ، صبح الاعشى » •

تمتاز طبعة دار الكتب المصرية بالتقيّد بأصول التحقيق الحديث ، ووضع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علامة بجانب العبارات التي يمكن تصحيحها ندلّ على التوقف وترك فهمها لاجتهاد القارىء . والدلالة على الكتب التي رجع اليها في كل إصلاح أدخله المحققون ، وتقييد أكثر الكلمات بالشكل بالاعتماد على معاجم اللغة المشهورة ، ووضع علامات الترقيم بين الجمل وأجزاء العبارات لتسهيل الفهم على القارىء ، وتمييز الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأمثال العرب ، وحكمها ، بعلامات فارقة ، وشرح ما جاء فيه من الغريب في الحواشي .

صدر الكتاب في طبعة دار الكتب المصرية في زهاء خمسمائة وستة آلاف صفحة وتقع هذه الصفحات في أربعة عشر مجلدا .

مصادر القلقشندي في تأليف « صبح الاعشى » :

ذكر الدكتور حمزة في كتابه عن القلقشندي (ص ٥٣ ، ٥٤) أن المصادر التي رجع اليها القلقشندي لا تقلّ عن مئة وفد تزيد ، وأورد منها على سبيل المثال الكتب التالية :

- ذخيرة الكتّاب لابن حاجب النعمان .
- حسن التوسل في صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبيّ .
- المثل السائر لابن الأثير .
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .
- التذكرة لابي الفضل الصولي .
- كتاب الأم للشافعي .
- العلم والدواة لمحمد بن علي .
- الملل والنحل للشهرستاني .
- قوانين الدواوين لابن مماتي .
- العقد الفريد لابن عبد ربه .
- حياة الحيوان للدميري .
- أدب الكاتب لابن قتيبة .
- صناعة الكتابة لابي جعفر النحاس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- كنز الكتّاب لكتاجم •
- البيان والتبيين للجاحظ •
- الاوائل لابي هلال العسكري •
- الأحكام السلطانية للماوردي •
- تشريف الايام بسيرة الامام الملك المنصور • لمحيى الدين بن عبد الظاهر •
- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري •
- تقويم البلدان لابي الفداء صاحب حماة •
- تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش •
- المسالك والممالك لابن فضل الله العمري •
- عجائب المخلوقات لابن الاثير •
- فضائل العرب لابن أبي عبيدة •
- نزهة المشتاق للإدريسي •
- معالم الكتابة لابن شيث •

وذكر الدكتور حمزة أن هناك كتباً أخرى لم يذكر القلقشندي أسماء مؤلفيها • وأورد منها على سبيل المثال :

الروض المعطار ، موّاد البيان ، القانون ، تاريخ النيل ، كتاب الاطوال ، رسم المعمورة ، تاريخ صفد ، الهناء الدائم بمولد ابي القاسم ، الدرّ الملتقط •

كثرة الاهتمام بصبح الاعشى :

اهتم بدراسة صبح الاعشى كثير من المستشرقين فقد نشر الاستاذ سوفير في مارسيليا عام ١٨٨٦ ــ ١٨٨٧ م (ملخصات من كتاب صبح الاعشى) •

ونشر الاستاذ فيستنفلد (جغرافية مصر للقلقشندي) في جوتنجين عام ١٨٧٩ ، وكتب الاستاذ مارتن هارتمان بحثاً عن (الفصول المتعلقة بالجغرافية الإدارية من صبح الاعشى) تحقيقاً ومتناً وترجمة في المجلة الآسيوية ٥٠ ــ ١٩١٦ •

وكتب الأستاذ كانار عن (الصلات السياسية بين بيزنطة ومصر في صبح الاعشى) في مؤتمر المستشرقين (١٩) لعام ١٩٣٥ م • وطبع من صبح الاعشى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثلاثة أجزاء عام ١٩١٣ في كلية أكسفورد عن النسخة الخطية الموجودة في خزانتها ، ونشرت هذه الاجزاء في مجلد واحد بدار الكتب ببولاق عام ١٩٢٣ هـ •

وكتب عنه المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ومما قاله في ص ٤١٦ — ٤١٧) ما يلي :

« تناول جميع المعارف، التي يحتاج إليها الكاتب المثالي ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام عن المواد والقلم والورق والخط الى المعلومات الواسعة في محيط الجغرافيا والتاريخ والادب والبلاغة وهو يقدم وصفاً لنواحي مصر والشام ، بل ولجميع الدول التي لها أدنى علاقة بمصر مما يجعل من كتابه مصدراً أساسيا بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي والاقطار المتصلة به في أوائل القرن الخامس عشر •

وممن كتب عن القلقشندي من المؤلفين العرب : الاستاذ إبراهيم الابياري في مقدمة تحقيقه لكتاب « نهاية الأرب في أنساب العرب » وتحدث في هذه المقدمة عن كتبه ومنها « صبح الاعشى » •

وممن كتب عنه أيضاً الاستاذ صباح محمود الحلي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد السابع والاربعون ج٤ ، ص ٧٨٨) وقد تناول في مقاله موضوع « المناخ والقلقشندي » وعنه أخذنا ما كتبه المستشرقون عن القلقشندي •

طبعت دار الكتب « صبح الاعشى » كاملاً ثم أعادت طبعه مصورا •

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في مكتبة زكي باشا ، كما يذكر جرجي زيدان •

لم نهتم به نحن ؟ :

تمثل هذه الموسوعة جانبا من طاقتنا الروحية المستمدة من تراثنا الحضاري الذي يضم مثلنا العليا والذي نستطيع إذا ترجمناه الى عمل منسجم مع الظروف الحاضرة موجّهٍ الى أهدافنا القومية المحدّدة أن نحقّق به النصر • فهي تحمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نمرات يانعه من الفكر العربي في مدى نيّف وثمانية قرون بدءاً من البعثه النبوية حتى أيام المؤلف الأخيرة ، ثمرات في فنون الإدارة والحكم وفي فنون النثر العربي الرسمي والطليق ، منظمه مبوّبة وفق الاغراض المتنوعة التي تشتمل عليها ، وهي تعتبر من أجمع الموسوعات الأدبية التاريخية الاجتماعية منذ فجر التأليف حتى نهاية الخمس الاول من القرن التاسع الهجري .

وقد عدّه الشيخ محمد عبد الرسول في مقدّمته لطبعة دار الكتب أنفس كتاب أُلّف في اللغة العربية وآدابها .

موضوعاته واهميته :

لقد بيّن القلقشندي فيه كيف كانت حال اللغة العربية قبل الاسلام وكيف انتشرت بعده في أكثر بلاد الدنيا المعروفة في عصر المؤلف بعد أن أصبحت لغة القرآن والدين الاسلامي وانتشرت بانتشارها في بلاد فارس وما وراء النهر وبلاد الروم « الاناضول » وفي مصر وافريقية والمغرب الاقصى وبلاد الاندلس والهند والصين وكثير من بلاد أوربا كصقلية .

وبيّن فيه كيف ازدهرت هذه اللغة زمن بني أمية وبني العباس وعنيت مادتها ، واتسع مجالها فأصبحت لغة العلوم والحكمة والجدل والمناظرة والتأليف ونظام الملك وسياسة الشعوب ولغة الفلسفة والعلوم العقلية من رياضيات ونجوم وهندسة وطب وكيمياء الى جانب انها لغة الادب والدين وبيّن فيه أطوار الكتابة العربية في شتى البلاد الاسلامية من ارتقاء ثم ضعف ووهن تبعاً لحال اللغة العربيه وحال أهلها من الوهن باستيلاء المغيرين عليهم وهم غرباء عنهم وعن العربية .

وبيّن فيه طبقات الكتاب وأهل الادب ، الذين نالوا حظوة لدى الملوك ورعاية واحتراما . وبيّن فيه الخلافة الاسلامية وشروطها ورسومها ومن وليها من الخلفاء الراشدين ومراكز ولاياتهم ، وخلفاء بني أمية بالشام والأندلس ، وخلفاء بني العباس ببغداد ، ومصر ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن ادّعوا لانفسهم الخلافة من بقايا الموحّدين في افريقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبيّن فيه الممالك الاسلامية في المشرق والمغرب وما وصلت اليه من المجد والحضارة وبيّن حدودها وأنظمتها ورسومها وما اشتملت عليه من الفضائل والمحاسن والخواصّ والعجائب • وما فيها من الآثار القديمة ومن تتابع عليها من الملوك في الجاهلية والاسلام •

وشرح فيه النظم الادارية في البلاد الاسلامية ، واهتمّ بجغرافية هذه البلاد ولا سيّما مصر والشام منها ، وبجغرافية البلاد الاوروبية المعروفة حينئذ وغيرها من بلاد الدنيا في إفريقيا وآسيا •

واهتم بخطط هذه البلاد وبنهر النيل بخاصة فتحدّث عمّا يعتريه من زيادة ونقص • واهتمّ بتاريخها وما توالى عليها من أحداث وعُني بمناقب مصر والشام وخواصهما وعجائبهما وآثار مصر القديمة ومن ولي كلاً من القطرين قبل الاسلام وبعده وتحدّث عن شؤونهما العامة قديماً وحديثاً •

وقد استقصى المؤلف في هذه الموسوعة عدة كتب أدبية وعلمية نفيسة وجمع فيها ما تفرّق من معلومات • وعرض لآثار الكتابة الديوانية منذ كتبت الرسائل والوثائق زمن النبي الى عصره فبيّن لنا بذلك أطوارها وأحوالها في العهود المختلفة متناولا ما يقرب من عشرين فناً من الفنون السلطانية مورداً أمثلة عليها من مختلف العصور • ومن هذه الفنون على سبيل المثال :

تحرير الولايات والعهود والمبايعات والأيْمان وكتب الأمان ، وعقود الصلح ، وكتب الهدنة والوصايا الدينية والمسامحات والإطلاقات والإقطاعات •

وكانت هذه الموسوعة بذلك كتاب تاريخ وسير وجغرافية ولغة وأدب وأمثال وحكم عربية وفقه وتفسير وحديث وبسط لنظم الحكومات بعامة ونظام حكومة مصر بخاصة •

وجمعت بين الفائدة والمتعة والشمول والدقة والصحة والوضوح ، وتنبّعت كل فن من فنون الكتابة السلطانية في عدة أقاليم • كالعراق والشام ومصر والحجاز والمغرب والأندلس • وكانت كتاب ثقافة عامة وتوعية للكتّاب تعلّمهم أصولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عامة لا بد منها في جميع فنون الكتابة . واهتمّت برفع مستوى الموظف الثقافي وجعله كفؤاً لعمله جديراً به .

وكانت لنا ذخراً قيّماً بهنيء أنفسنا ببقائه وحفظه من الضياع وطبعه ونشره . وكانت شاهداً على ما لصاحبها من فطنة وقدرة وتمكّن من العربية وآدابها وسعة اطّلاع في ميادين المعارف الأخرى .

وهذا ما جعلها تروج لدى المثقفين منذ حياة المؤلف فقد تسابقوا الى نسخها . وذكر المؤلف ذلك في آخر كتابه وشكر الله عليه .

وقد أثبت القلقشندي بها أنّه من أعظم رجال العهد الأيوبي الذين كان لهم دور في حفظ الثقافة العربية وإحيائها وبنائها وتوجيهها وكان أحد عظماء العرب الذين صُرفوا عن السياسة والحكم والحرب فانصرفوا الى تشييد بناء الحضارة والعمران بلبنات من العلم والادب والفن .

ما حمله على تأليف كتابه :

ذكر القلقشندي في تقديم الكتاب قيمة اللسان والقلم في الترجمة عمّا في الضمائر ، وشرف الكتابة على سائر الصنائع ومكانة الكتّاب لدى الملوك ، وتقدّم مصر في عصره على سائر الاقطار الاسلامية بحيث أصبحت مقرّ الخلافة وخادمة الحرمين وحاوية القبلتين وغناها بفضلاء الكتاب على غيرها في الحديث والقديم .

نجوم سماء كلّما غاب كوكب بدا كوكب تأوي اليه كواكبُه

ثم ذكر أنّ المؤلفين في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم فبعضهم اهتمّ ببيان أصولها وذكر شواهدها ، وبعضهم اهتمّ بذكر المصطلحات وبيان مقاصدها ، وبعضهم اهتمّ بتدوين الرسائل لتكون نماذج لمن بعدهم يسلك سبيلها ، وأنّه لم يؤلّف كتاب جامع شامل لجميع ما يطلب معرفته فيها .

ثم ذكر الدستور الموسوم « بالتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ــ ويقصد بالدستور الكتاب الذي ينص على قواعد هذه الصنعة ، فبيّن أنّه من أنفس الكتب المؤلفة في هذا الموضوع إلاّ أنه أهمل أمورا لا يسوغ تركها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحتيج الى غيره للاطلاع عليها ومما أهمله هذا الكتاب البطائق ، والملطفات والمطلقات ، ثم ذكر دستور ابن ناظر الجيش المسمى « تثقيف التعريف » الذي استدرك ما أنقصه العمري ولكنه أهمل مقاصد لا غنى عنها كالوصايا والاوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام ولم يغن عن سابقه وانفرد كل منهما بمحسنات وقد آنس من نفسه القدرة على استكمال النقص ورأى أنّه يجب ألاّ يكتفي بمعرفة المصطلح وان يكمل ذلك بشرح أصول الصنعة وألاّ يكتفي بالتقليد وأن يضمّ إليه الاجتهاد :

ولم أر في عيوب الناس عيبـا كنقص القادرين علـى التمام

ثم ذكر أنّه أنشأ مقامة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة حين بدأ العمل في ديوان الإنشاء بيّن فيها ما يجب على صاحب هذه الصنعة وطالبها معرفته من شؤونها ولكنّها كانت لشدّة إيجازها بمثابة الوحي والإشارة فأشار عليه صاحب الديوان حينئذ أن يشرحها بكتاب يستوفي فيه كلّ ما يتعلّق بها فاستجاب له ولكنّ قريحته جمدت في بدء المحاولة ثم أسمحت .

مميّزات كتابه في رأيـه :

ثم بيّن أنّه استوعب في كتابه من حيث المادة ما ضمّه كتابا التعريـف والتثقيف مع إيضاح ما استبهم عندهما ، وضرْب الأمثلة وتسهيل العبارة وطريقة العرض والتأليف ، ومع استكمال النقص في البحوث وتتبّع فرع كل قضية وأصلها واستيفاء كل ما يحتاج اليه الناظر من قضايا الموضوع بحيث يجد جواباً لكلّ سؤال يعترضه ، مُضيفاً الى ذلك أحـوال الممالك المكاتَبة وأقدارها معيّناً قواعدها وطريق الوصول اليها براً وبحراً وانقطاعاً واتصالاً مع ذكر مشاهير بلدانها وضبط أسمائها .

ونرى أنّ المؤلف متواضع فهو يطلب من مطالع كتابه أن يعذره عـلى ما يجده فيه من نقص أو خطأ لأنّ نتائج الأفكار ليس لها حدّ تنتهي اليه ولكل انسان طاقة محدودة ثم يزيد غيره عليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وندرك من هذا التقديم سعة اطّلاع المؤلف على الموضوع الذي يؤلف فيه وإلمامه بجوانبه واعترافه بالفضل للذين سبقوه وحسن خلقه وتواضعه العلمي ونستشف انه يتمتع بعقل منظّم يحسن فيه تخطيط ما يريد أن يؤلف فيه ويشرحه ، ثم تتبيّن سهولة أسلوبه ووضوحه برغم استعمال السجع كأهل عصره ، ونرى أنه يحلّي نثره في المقدمة بالشعر يأتي به من محفوظاته المختارة .

ثم ذكر في هذا التقديم أنّه سمّاه « صبح الأعشى » في كتابة الإنشا ولم يقل سبب اختياره لهذا الاسم ولكنه مفهوم من خلال هذا التقديم نفسه فإنّه قد شرح في كتابه كل شيء يخص الكتابة شرحاً واضحاً سهلاً كافياً يضيء كالصبح المنير ويهدي الى الطريق حتى من كان أعشى ضعيف البصر .

ثم ذكر أنّه رتّبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة وأتمّ التقديم بذكر ما يتضمنه من المقدمة والمقالات العشر واحدة واحدة والخاتمة من موضوعات على التسلسل وهذا ما حملنا على وصف تأليفه بالفكر المنظّم المخطّط المرتب الشامل المستوفي .

د ــ نصوص ديوانية مختلفة منه

١ ــ نص من الفصل الاول من المقالة الاولى :

وهو فيما يحتاج اليه الكاتب على سبيل الاجمال (ج ١ ص ١٤٥) : « على أن كاتب الانشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم ولا يسعه الوقوف عند فنّ ، فقد قال الوزير ضياء الدين بن الاثير في « المثل السائر » أنّ صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فنّ من الفنون حتى إنّه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس . والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة » . فما ظنّك بما فوق هذا وذلك لأنّه مؤهل أن يهيم في كل واد ، فيحتاج الى أن يتعلق بكل فنّ ، بل قيل إنّ كلّ ذي علم يسوغ أن ينسب اليه فيقال فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة اليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعلم ان كاتب الانشاء وإن كان يحتاج الى التعلّق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه الى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج اليه بطريق الذات ، وهي موادّ الانشاء التي يستمدّ منها ويقتبس من مقاصدها ، كاللغة التي منها استمداد الالفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك ممّا يجري هذا المجرى ، وعلى هذا اقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه « حسن التوسل » . ومنها ما يحتاج اليه بطريق العَرَض كالطبّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم فإنّه يحتاج الى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم والى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنّفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب ، ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجّم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس ، وربما احتاج الى معرفة ما هو دون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قَدَمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكرة فتوّة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج الى معرفة مصطلح شكل الناس لكتابة أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيلي اقتراحاً أو امتحاناً للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج الى وصفه كأوصاف الابطال والشجعان ، والجوارح والغلمان ، والخيل والإبل ، وجليل الوحش وسائر أصنافه ، وجوارح الوحش والطير ، وطير الواجب ، والحمام الهدي ، وسائر أنواع الطير ، والسلاح بأنواعه وآلات الحصار ، والآلات الملوكية ، وآلات السفر ، وآلات الصيد ، وآلات المعاملة ، وآلات اللهو والطرب ، وآلات اللعب ، وآلات الشرب ، والمدن ، والحصون ، والمساجد ، وبيوت العبادات ، والرياضة ، والاشجار والازهار والثمار والبراري والقفار والمفاوز والجبال والرمال ، والأودية والبحار ، والأنهار وسائر المياه ، والسفن والكواكب والعناصر والأزمنة والأنواء والرياح والمطر والحرّ والبرد والثلج وما يتعلّق بكل واحد من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الأشياء أو يخرط في مسلكه ونحو ذلك مما تدعو الحاجة الى وصفه في حالة من حالات الكتابة على ما سيأتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى » .

كلمة في هـذا النص :

هذا النص قيّم جداً يبرهن به المؤلف على ضرورة اطّلاع الكاتب على كل علم وكل فن وكل شيء في الحياة صغر أو كبر لأنه قد يضطر الى الكتابة فيه مفاجأة على غير انتظار ولأنّه يساعد على زيادة وعيه وفهمه للأمور فهماً صحيحاً شاملاً .

فالكاتب قد يطالب بكتابة شيء يتعلق بأمر السّفلة فعليه أن يعرف مصطلحهم وكل ما يتعلق بهم وقد يطالب بالكتابة في شيء من الهزل في التطفل فعليه أن يعرف أحوال الطفيليين وعاداتهم ومصطلحاتهم . وأنت تخرج من النص مدركاً مقتنعاً بأن الكاتب يجب أن يلمّ بكل شيء ممّا يُسمع أو يُرى أو يُلمس أو يُتذوّق أو يُدرك بالعقل أو يُقرأ أو يُتصور .

وحبّذا لو استطاع كتّابنا الحديثون ، صحفيّين أو قصصيّين أو كتّابَ تمثيليات ، أن يُوسّعوا ثقافاتهم ويطبّقوا ما يقوله هذا المؤلف ، إذاً لكانوا أعمق تناولاً وأصدق تجربةً وأصحّ حُكماً وأبعد أفُقاً وأقلّ إملالاً وأكثرَ إثارةً للإعجاب وأملك لناصية الفن الصحيح .

وبيننا وبين هذا المؤلّف الواعي سبعة قرون تقريبا ولكنّه أكثر إحساساً بالفنّ الكتابي من كثيرين يعيشون بيننا . ويذكّرنا هذا المؤلّف مع زميله ضياء الدين بن الأثير بالكاتب الفرنسي « كوستاف فلوبير » مؤلف مدام بوفاري الذي قيل إنه شرب السمَّ الذي تشربه بطلة قصته ليُحس بعوارض هذا السم ويسعر بآلامه فيحسن وصفها . ويستعين القلقشندي في مطلع النص برأي ابن الأثير الذي يتفق هو معه في الرأي وقد رأى ابن الأثير أن يعرفَ الكاتب ما تقوله كل من النادبة والماشطة وما يقول المنادي في السوق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستشهاده بقول ابن الأثير دليل كثرة مطالعته وحسن فهمه لآراء غيره ومجاريهم . وهو لا يكتفي برأي ابن الاثير وأمثلته بل يبيّن تبياناً منطقياً أنّ الكاتب اذا كان عليه أن يلمّ بكل شيء فان إلمامه بالأشياء يجب ألاّ يكون متساوياً ويجب أن يفرّق بين الاكثر ضرورة والضروري والكمالي . فاللغة والنحو وعلوم البلاغة معارف أساسية يجب إتقانها . وقد اقتصر بعضهم على ذكرها في كتبه كابن الأثير والشهاب محمود ، على احساسهما بضرورة معرفة الكاتب بكل شيء ، كما رأينا في كلام ابن الأثير في النص المعروض .

رضوا ما يحتاج اليه بطريق العرض أي ما هو كمالي ليست الحاجة اليه ماسة ولكنّ معرفته ضرورية وقد ذكر المؤلف لذلك أمثلة كثيرة شملت أكثر نواحي الحياة مما يقع تحت الحس والمشاهدة أو يدخل في حيّز الاستعمال .

وهذه الأمثلة تدلّ على سعة تجربته وشمول نظرته وغنى فكره وخياله وبعد آفاقه وقد توسّع في هذه الأمثلة بين جِدّ وهزل وسماء وأرض وطبيعة وصناعة وعلم وحضارة علم وفن .

وإنّما ذكر ذلك كله في هذا الموضوع من قبيل الأمثلة ثم بيّن أنه سيبيّن ذلك في آخر الفصل الثاني من هذا الباب وبذلك يثبت مرة أخرى حسن تخطيطه وترتيبه في تأليف كتابه .

ونلاحظ أن أسلوب المؤلف في هذا النص واضح سهل خال من التكلف والصناعة ومن السجع اتجهت عنايته فيه الى أداء المعنى ووُفّق فيه الى ما أراد .

٢ ـ قال القلقشندي (في الجزء التاسع من صبح الاعشى ص ٢١٣) :

وهذه نسخة بيعة مرتبة على خلع خليفة أنشأتها على هذه الطريقة أيضا (طريقة ان افتتح البيعة ، بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله) ، وتعرّضتُ فيها لذكر السلطان القائم بها ، على ما تقدم في البيعة المرتبة على موت خليفة وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مَثابةً للناس وأمنا . وأقام سُور الامامة وقاية للأنام وحصنا ، وشدّ لها بالعصابة القرشية أزْرا وشاد منها بالعُصبة العباسية ركنا . وأغاث الخلق بإمام هدىً حُسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيرة وصفا سربره ، فراق صوره ورق معنى ، وجمع قلوبهم عليه فلم يمسكف عن الانقياد اليه أعلى ولا أدنى ، ونزع حلبابها عمن شغل بعبرها فلم يعرها نظراً ولم يصغ اليها أذنا ، وصرف وجهها عمّن أساء فيها تصرّفا فلم يرفع بها رأسا ولم يعمر لها مغنى • نحمده على نِعَمٍ حلّت ومنن جلت الخطوب حين جلّت : ومسارّ سرت الى القلوب فسرّت ، ومَبارّ أفرّت العيون ففرّت وعوارف أمّت الخليقة فتوالت وباركت ، وقدم صدق تبتت إن شاء الله في الخلافة فما تزلزلت ولا زلّت •

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا من درك الشكوك كالئة ، ولمهاوي الشبه دارئة ، وللمقاصد الجميلة حاوية ، ولشقة الزيغ والارتياب طاوية ، وأنّ محمداً عبده ورسوله الذى نصح الأمة إد بلّغ فشفى عليلها وأوردها من مناهل الرشد ما أطفأ وهمْجها وبرّد غليلها وأوضح لهم مناهج الحق ودعاهم اليها • وأبان لهم سبل الهداية • (فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها) صلى الله عليه وعلى آله وسلم أئمة الخير وخير الأئمة ، ورضي الله عن أصحابه أولياءِ العدل وعُدول الأمة صلاة ورضوانا يعمّان سائرهم ويشملان أولهم وآخرهم ، سيما الصديق الفائز ، بأعلى الرتبتين صدقاً وتصديقاً ، والحائز قصب السبق في الفضيلتين علما وتحقيقا ، ومن عدل الانصار إليه عن سعد بن عبادة بعد ما أجمعوا على تقديمه ، وبادر المهاجرون الى بيعته اعترافاً بتفضيله وتكريمه ، والفاروق الشديد في الله بأسا والليّن في الله جانبا ، والموفي للخلافة حقا والمؤدي للامامة واجبا ، والقائم في نصرة الدين حق القيام حتى عمّت فتوحه الأمصار مشارقا ومغاربا ، وأطاعته العناصر الاربعة : إذ كان لله طائعا ومن الله خائفا والى الله راغبا ، وذي النورين المعوّل عليه من بين سائر أصحاب الشورى تنويهاً بقدره ، والمخصّص بالاختيار تفخيماً لأمره ، من حُصر في بيته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره ، وشاهد سيوف قاتليه عياناً فقابل فتكاتها بجميل صبره ، وأبي الحسن الذي أعرض عن الخلافة حين سئلها ، واستعفى منها بعد ما اضطُرّ اليها وقبلها • وكشف له عن حقيقة الدنيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فما أمّ قبلتها بقلبه ، ولا ولّى وجهه قبلتها وصرّح بسقاطعتها بقوله : « يا صفراءُ عرّى غبري، يا بيضاءُ غرّي غبري، لمّا وصلها من وصلها، وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم ، الناهجين نهجهم الواردين وِردهم •

أمّا بعدُ فإنّ للإمامة شروطاً يجب اعتبارها في الامام ، ولوازم لا يغتفر فوانها في الابتداء ولا في الدوام ، وأوصافاً يتعين إعمالها ، وآداباً لا يسع إهمالها : من أهمّها العدالة التي ملاكها التقوى ، وأساسها مراقبة الله في السر والنجوى ، وبها تقع الهيبة لصاحبها فيُجَلّ وتميل النفوس إليها فلا تُحَلّ • فهي الملكة الداعية الى ترك الكبائر واجتنابها والزاجرة عن الإصرار على الصغائر وارتكابها ، والباعثة على مخالفة النفس ونهيها عن الشهوات ، والصارفة عن انتهاك حُرُمات الله التي هي أعظم الحُرُمات ، والموجبه للتعفّف عن المحارم ، والحاملة على تجنب الظّلامات وردّ المَظالم ،و الشجاعة التي بها حماية البيضة والذبّ عنهـا ، والاستظهار بالغزو على نكاية الطائفة الكافره والغض منها ، والقوة بالشوكة على تنفيذ الأوامر وإمضائها وإقامة الحدود واستيفائها ونشر كلمة الحق ، وإعلائها ، ودحض كلمة الباطل واخفائها • وقطع مادة الفساد وحسم أدوائها ، والرأي المؤدي الى السياسة وحسن التدبير والمغني في كثير من الاماكن عن مزيد الجد والتشمير والمعين في خدع الحرب ومكايده والمسعف في مصادر كل أمر وموارده •

هذا وقد جعلنا الله أمة وسطاً ووعظنا بمن سلف من الامم ممن تفرّد وعتا أو تجبر وسطا ، وعصم أمتنا أن تجتمع على الضلال ، وصان جمعنا عن الخطل في الفعال والمقال ، وندبنا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسوّغ لأمتنا الاجتهاد في النوازل والاحكام فاجتهادهم لا ينكر خصوصا في شأن الإمامة التي هي آكد أسباب المعالم الدينية وأقواها ، وأرفع المناصب الدنيوية وأعلاها ، وأعزّ الرتب رتبة وأغلاها ، وأحقّها بالنظر في أمرها وأوْلاها • وكان القائم بأمر المسلمين الآن فلان بن فلان الفلاني ممّن حاد عن الصراط المستقيم وسلك غير النّهج القويم ومال عن سنن الخلفاء الراشدين فأدرك الزلل وقارف المآثم فعاد بالخَلَل ، فعاث في الارض فسادا ، وخالف الرشد فسادا ، ومال الى الغي اعتمادا •• وأسلم الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوى فمادا . قد انتفل عن طور الخلافه . وعزيز الإنافه الى طور العامة فاتصف بصفاتهم ، واتّسم بسِماتهم : فمنكَرٌ يجب علل إنكارُه قد باشره ، وصديق سوء يتعين عليه إبعاده قد وازره وظاهره : إنْ سلك فسبيلَ النهمة والارتياب ، أو قصد أمراً نحا فيه عن الصواب ، منهمكٌ على سهوابه ، منعكف على لذاته ، متشاغل عن أمر الأمّة بأمر بنيه وبناته : الجبن رأس ماله ، وعدم الرضى قرينه في أفعاله وأقواله ، قد قنع من الخلافة باسمها ، ورضي من الإمامة بوسمها ، وظنّ أنّ السؤدد في لبس السواد فمال الى الحَبَف ، وتوهّم أن القاطعَ الغمدُ فقَطع النظرَ عن السيف .

ولمّا اطّلع الناس منه على هذه المنكَرات ، وعرفوه بهذه السِّمات ، وتحققوا فيه هذه الوجهات ، رغبوا في استبداله وأجمعوا على خلعه وزواله ، فلجؤوا الى السلطان الاعظم الملك الفلاني (بالالقاب السلطانية الى آخرها) نصر الله جنوده وأسمى جدوده وأرهف على عُداة الله حدوده ، ففوّضوا أمرهم في ذلك اليه وألقوا كَلَّهم عليه ، فجمع أهل الحلّ والعقد منهم ومن تصدُر إليهم الأمور وترِد عنهم فاستخاروا الله تعالى وخلعوه من ولايته وخرجوا عن بيعته ، وانسلخوا عن طاعته وجرّدوه من خلافته . تجريد السيف من القراب ، وطووا حكم إمامنه ، كطيّ السجلّ للكتاب . وعندما تم هذا الخلع وانطوى حكمه على البت والقطع ، التمس الناس إماماً يقوم بأمور الامامة فيوفّيها ويجمع شروطها ويستوفيها ، فلم يجدوا لها أهلا ، ولا بها أحق وأولى ، وأوفى بها وأملى ، من السيد الاعظم الإمام النبوي سلسل الخلافة ، ووليّ الإمامه أبي فلانٍ فلان العباسي الطائع لله (مثلاً) أمير المؤمنين . لا زال شرفه باذخاً ، وعرنينه الشريف شامخاً ، وعهد ولايته لعهد كل ولاية ناسخاً ، فساموه بعتها فلبّى ، وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى علما منه بأنها تعيّنت عليه ، وانحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل اليه . اذ هو ابن بجدتها ، وفارس نجْدتها ، ومُزيل غُمّتها وكاشف كرْبتها ، ومُجلّي عماهبها ومُحمِد عواقبها ، ومُوضح مذاهبها ، وحاكمها المكين بل رشيدها الأمين ، فنهض المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه : فرن الله مقاصده الشريفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالنجاح . وأعماله الصالحة بالفلاح . وبدر الى سعه فبايع وائتم به من حضر من أهل الحلّ والعقد فتابع ، وقابل عَقْدها بالقبول فمضى ، ولزم حكمها وانقضى ، واتصل ذلك بسائر الرعية فانقادوا . وعلوا صوابه فسَتَوْا على سَنَنِه وما حادوا . وشاع خبر ذلك في الأمصار ، وطارت به مُخلّفات البشائر الى سائر الأقطار ، فنعرّفوا منه اليُمْن فسارعوا الى امتثاله ، وتحقّقوا صحته وثباته بعد اضطرابه واعتلاله ، واستعاذوا من نقص يصيبه بعد تمامه لهذا الخليفة وكماله ، فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها وحبل وفائها وكريم مظهرها ، وجادت بجزيل الامتنان ، وتلا لسان كرمها الوفي على ولبها الصادق (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، فجدّد بالسلطنة التريمة عهداً وطوّق جيده بتفويضها اليه عقداً ، وجعله وصيّه في الدين ، ووليّه في أمر المسلمين وقلّده أمر الممالك الاسلامية وألقى اليه مقاليدها ، وملّكه أزمّتها ، وحقّق له مواعيدها وعقد له لواءها ونثر عليه أعلامها وصرّفه فيها على الإطلاق وفوّض إليه أحكامها وألبسه الخلعة السوداء ، فكانت لسؤدده شعارا ، وأسبغ عليه رداءها فكان له دثارا ، وكتب له العهد فسقى المعاهد صوب العهاد ، ولهج الأنام بذكره فاطمأنت العباد والبلاد ، وعندما تمّ هذا الفصل ، وتقرّر هذا الاصل ، وأمست الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين وبنعمته مستبشرين ، طولب أهل البيعة بما يحملهم على الوفاء ويمنع بيعتهم من التكدر بعد الصفاء : من توثيق عقدها بمؤكد أيْمانها والإقامة على الطاعة لخليفتها وسلطانها فبادروا الى ذلك مسرعين ، والى داعيه مهطعين ، وبالغوا في المواثيق وأكّدوا وشدّدوا في الأيمان وعقدوها ، وأقسموا بالله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة ، عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، في البدء والإعادة ، وعلى الوفاء لهما والموالاة ، والنصح والمصافاة ، والموافقة والمشايعة والطاعة ، والمتابعة ، يوالون من والاهما ويعادون من عاداهما ، لا يقعدون عن مناصرتهما عند إلمام مُلِمّة ، ولا يرقبون في عدوّهما إلاّ ولا ذِمّة ، جارين في ذلك على سنن الدوام والاستمرار والثبوت واللزوم والاستقرار ، على أنّ من بدّل منهم من ذلك شرطا أو عمّى له رسما ، أو حاد عن طريقه أو غيّر له حكما ، أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانة ، أو استحلّ الغدر ، وأظهر الخيانة ،

مُعلِنا أو مُسِرّا في كلّه أو بعضه ، مأوّلا أو محالا لإبطاله أو نقضه ؛ فقد برىء من حول الله المبين وقوته الواقية وركنه التديد وذمّته الوافية الى حول نفسه وقوّته . وركنه وذمّته . وكلّ امرأه في عصمه الآن أو يتزوّجها مدة حياته طالق ثلاثاً بصريح لفظ لا يتوقف على نيّة ، ولا يُفَرّق فيه بين سنة ولا بدعة . ولا رجعةَ فيه ولا مَثْنَوِيّة وكل مملوك في ملكه أو يملكه في بقية عمره من ذكر أو أنثى حرّ من أحرار المسلمين . وكلّ ما هو على ملكه أو يملكه في بقية عمره الى آخر أيامه من عين أو عرضَ صدقة للفقراء والمساكين ، وعليه الحج الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة بثلاثين عمره ، راجلاً حافياً حاسراً لا يقبل الله منه غير الوفاء بها باطناً ولا ظاهراً وإهداء مئة بدنة في كل حجة منها في عسرته ويسرته . لا تجزئه واحدة منها عن حجة الاسلام وعمرته ، وصوم الدهر خلا المنهي عنه من أيام السنة ، وصلاة ألف ركعة في كل ليلة لا يباح له دون أدائها عمض ولا سِنَة ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ولا يؤجر على شيء من ذلك قولاً ولا فعلاً ، متى ورّى في ذلك أو استثنى أو تأوّل أو استفتى كان الحنث اله عائداً ، وله اليّ دار البوار قائداً ، معتمداً في ذلك أشد المذاهب في سرّه وعلانيته ، على نية المستحلف له دون نيّته وأمضوها بيعة محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي جميلة المقاصد ، طيبة الجنى جليلة العوائد ، قاطعة البراهين ظاهرة الشواهد ، وأشهدوها على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من قضاة الإسلام وعلمائه وأئمة الدين وفقهائه ، بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به للخائنين خصيما : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) . والله تعالى يجعل انتقالهم من أدنى الى أعلى ومن يسرى الى يمنى ، ويحقق لهم بما استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيمكنَنّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم ولَيبدّلنّهم مِن بعد خوفهم أمنا) إنْ شاء الله تعالى .

وهذه هي الطِرّة التي كتبها لهذه البيعة وقد كتبها بالقلم نفسه الذي كتب به البيعة . « وهذه بيعة ميمونة ، باليمن مبتدأة بالسعد مقرونة ، لمولانا السيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجليل الإمام النبوي المتوكل على الله أبي عبد الله محمد أمير المؤمنين ، ابن الامام المعضد بالله أبي الفتح أبي بكر العباسي ، زاد الله تعالى شرفه علوّا وفخاره سموّاً • قام بعقدها السلطان السيد الأعظم • والشاهنشاه المعظم ، الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ، خلّد الله تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ، بمجمع من أهل الحل و العقد ، والاعتبار والنقد ، من القضاة والعلماء والامراء ووجوه الناس والوزراء والصلحاء والنصحاء ، وإمضائها على السداد • والنجع والرشاد • على ما شرح فيه •

ومنه يفهم أنّ الطرّة هي خلاصه ما في البيعة المعرّفه بمضمونها ، وتوضع قبلها •

كلمة في هذا النص :

كتب هذه البيعة القلقشندي نفسه مؤلف كتاب صبح الأعشى وهي تعطينا صورة عن عقود البيعة بالخلافة التي كانت تكتب في ذلك الزمان • وهي الصورة التي كانت تبدأ بعد البسملة بحمد الله •

ويلاحظ أنه ذكر خلال الحمد مكانة بيت الخلافة لدى الناس وضرورة الخلافة لاستقرار أمورهم وبيّن منذ استهلاله بالحمد أنّ الموضوع هو خلع خليفة ظهر فساده وتولية خليفة هو الأحقّ بها • وهو يحمد الله على نعمه الكثيرة التي منها هذه النعمة •

ثم يأتي بالشهادتين ويصلّي على النبي ويدعو بالرضى لأصحابه ويخصّ بالذكر الخلفاء الراشدين الأربعة ويُبيّن خلال ذلك مشروعية الخلافة وكيف بدأت بعد النبي بأبي بكر وأنه كان أحقّ من غيره بها ، وذكر خلال ذلك ما يتّصف به كل خليفة من الأربعة الراشدين من فضائل لتكون نبراساً للخلفاء بعدهم • وهذه هي المقدمة التمهيدية • ثم يأتي بأما بعد فيباشر بها الدخول في صلب الموضوع •

ويقدم له بشروط الإمامة من الأخلاق التي يجب أن تتوافر في الخليفة فاذا خرج عليها استُحلّ إبطالُ بَيْعته ، وهي العدالة التي ملاكها التقوى والشجاعة والرأي الرشيد •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يبيّن أنّ الله جعل هذه الأمه وسطاً وجعل أهلها شهداء على الناس وأباح لهم الاجتهاد لما فيه مصلحتهم ولما كانت الخلافة أهمّ شيء عندهم وكان الخليفه القائم قد ظهر فساده لهم فقد حق لهم التحلّل من بيعته • ولذلك لجؤوا الى السلطان وفوّضوا أمرهم اليه فجمع أهل الحل والعقد فاتفقوا على خلعه ثم التمسوا إماماً يحلّ محلّه فوجدوا أحقّ الناس بمنصب الخلافة الطائع لله •• فدعوه الى تولّيه فلبّى ، وعلى ذلك بايعه السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق ، وتابعه في هذه البيعة أهل الحل والعقد وامتثلت الرعية لهذه البيعة وأيدتهما وقابل الخليفه الاحسان بالاحسان فجدد للسلطان عهد السلطنة ونبته في منصبه وفوّض اليه تدبير شؤون المسلمين وأصبحت الرعايا بذلك جميعه فرحين •

وعلى ذلك فان أهل البيعة من أرباب الحل والعقد مطالبون بالوفاء للخليفة والسلطان معاً والامتثال لأوامرهما •

وهو يستعمل الأيمان المتدّده للإخلاص لهذه البيعه وعدم الاخلال بمضمونها والخروج عليها •

ثم يذكر أنهم أوردوها بيعة محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي مباركة النتائج وجعلوا الله شهيدا عليها أوّلا والفقهاء وقضاة الاسلام وعلماءه ثانياً •

ويختم البيعة بذكر آيتين تندّد الاولى بالغادرين وتعد الوافين بالأجر العظيم وتعد الثانية المؤمنين الصالحين بالسيادة والتمكن والأمن •

والبيعة بهذه الصورة قد رتبت ترتيباً منطقياً يتسلسل فيه من المقدمات الى النتائج وتعطينا صورة سياسية واجتماعية لذلك العهد •

فقد كانت الخلافه أعلى منصب ديني اجتماعي ظاهراً ، ولكنّ الخليفة في الحقيقة لم يكن له حول ولا طول وكان مظهراً لا أثر له في تصريف الامور وتغييرها ، يتّخذ ستارة يبرّر بها أعمال السلاطين المستبدين الغريبين عن البلاد •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا العهد يحاول خداع الامة بمظاهر كاذبة من الشورى يتقلّد بها ما جرى زمن الخلفاء الراشدين فالخليفة المخلوع لم تخلعه الامه وانما خلعه السلطان الذي بيده القوه المادية والسلطة العسكريه . والعلماء الذين أفتَوا بخلعه يمالئون السلطان خوفا أو نفاقا ويعلمون أنهم لا يستطيعون تغييره فليستجيبوا إذاً لإرادته .

والخليفة الجديد قد يكون أسوأ من القديم أو أقل كفاءة وصلاحاً منه ، ولكنّ السلطان يريد تنصيبه ليُضفي الشرعية على سلطته ولذلك يدعي العهد بأنّ الخليفة المخلوع قد ظهر للناس فسادُه ففوّضوا السلطان في التصرف . وأهل الحل والعقد أكثرهم من أمراء الجيش الذين يأتمرون بأمر السلطان . والسلطان يجمعهم فيتفقون على خلع خليفة ونولية آخر بوصف بأنه أصلح رجالات البيت العباسي للخلافة فيوافق فيبايعه السلطان ويبايع السلطانَ أهلُ الحل والعقد وتستبشر الرعية بذلك وتؤيد البيعة .

وتتمّ المسرحية بأن يقابل الخليفة الجديد الحسنة بالحسنة فيصدر تقليداً بتجديد التفويض بالسلطنة للسلطان الذي يسخر بالجميع لأنّ بيده القوة . والتفويض يجعل يد السلطان مطلقة في شؤون الرعية وتدبير أمور الدولة . والخليفة يسلخ نفسه من كل سلطة ليجعلها في عنق السلطان . والحقيقة أنّه لم يكن ولن يكون له سلطة لينسلخ منها . والشعب هو الصحية وهو مصدر السلطة والمبايعة قولا ، ولكنه ليس له شيء من الرأي في شؤونه عملا .

ويرى كيف يطالب الشعب بالإخلاص لبيعة لم تكن له إرادة فيها وبأن يفي بشروطها ومستلزماتها وهو مكره عليها وليس ذلك من الإسلام ولا من الشورى في شيء . ثم يرى كيف تشدّد الأيْمان على أهل الحل والعقد أو من يزعم أنهم كذلك ، وعلى غيرهم من الرعية ، فمن غدر بعهده طُلقت نساؤه وحُرّمت عليه أمواله ونحررت جواريه وعبيده ولزمه كذا حجة وكذا عمرة ... الخ .

وإنما ينشدّدون بهذه الأيْمان استمرارا في السنّه التي سنّها الحجاج حين كان يجبر أهل العراق على مبايعة الخلفاء الأمويين . وأغرب شيء أنّ عهد الخلافة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدي بين أيديها يفرض على الله سبحانه وتعالى نفسه أن ينقبّل العبادات من عباده أو لا يتقبلها وفقا لصالح من كتب هذا العهد من أجلهم . وهذه وقاحة على الله لا ندري كيف قبلها العرب والمسلمون وفقهاؤهم : (لا يقبل الله صرفا ولا عدلا ولا يؤجر على شيء من دلك قولا ولا فعلا) . وهذا افتراء على الله .

ويظهر أنّ سلاطين دلك الزمان قد استسهلوا خداعهم باسم الشورى والبيعة .

وبعد فإنّ العهد قد تناسب في الطول مع عظم مقام الخلافة أو مع ما يفترض وبُتوهّم من عِظم هذا المَقام حينئذ .

وظاهر فيه الإسهاب بإيراد الجمل المترادفة والفقرات المسجوعة المطوّلة وبسط المعاني بما يمكن ايجازه في عبارات قليلة .

وظاهر فيه تكلف الصور البيانية والفنون البديعية من سجع وطباق وجناس واقتباس وغير ذلك من ألوان البديع .

وظاهر فيه الملق للحكام والمبالغة في التعظيم والتوقير لهم ومسالأتهم في ذم الخليفة المخلوع ومدح الخليفة المنصوب .

وظاهر فيه قلّة الغريب وسهولة التراكيب ووضوح المقصود ، وجمال الأداء .

وظاهر فيه استيفاء ما يجب استيفاؤه في مثل هذه الصكوك الفقهية القانونية .

٣ ـ وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة من انشاء الشهاب محمود الحلبي رحمه الله وهي تمثل الكتابة الديوانية في العهد المملوكي التركي :

ملاحظة : قبل أن نورد النص نلفت النظر الى أنّ القلقشندي كان قد تكلم على ترتيب وظائف المملكة في المقالة الثانية وبيّن أن الكفالة وهي نيابة السلطنة بالحضرة هي أعلى رتب نيابة السلطنة ، وأنّ النائب الكافل يحكم في

كل ما يحكم فيه السلطان ويُعلّم في التقاليد والنواقيع والمناشير وغير ذلك بخلاف غيره من النواب فإنّ كل نائب لا يُعلّم الا على ما يختصّ بخاصة نيابته • وقد تقدّم في مقدمة الولايات أنّ لقبه « المقرّ الكريم » على ما استقرّ عليه الحال :

وهذا هو نص التقليد : « صبح الأعشى ، ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ » :

« الحمد لله الذي جعل ركن الدولة في دولتنا القاهره ثابت القواعد ، على فرقد الفراقد ، راقيا في رتب العلوّ الآخذة من أفق التأييد بالمطالع ومن نُطُق العز بالمعاقد ، حاليا بعقود المهابة التي لا تزال لرعبها على الأعداء طلائعَ خيل في المَراقب ورائع خيال في المَراقد ، حاويا من أنواع المفاخر ما لو كاثرته الدراري غدت وهي لمجموعه بفراقد ، أو فاخرته الدرر ثقبتها الأفكار النواقد ، مقلدا من سيوف الظفر ما لا تنبو في نصرة الإسلام مضاربه وكيف تنبو وأوامرنا لعقود حمائلها على عواتق مجده عواقد • نحمده على نعمه التي عدقت أمور دولتنا بمن يرفع بأسُه نارَها ، وعقدت قواعد مملكتنا بمن يوالي فضلُه أنوارَها ، وعضدت هِممَ أوليائنا بمن اذا تخيّلت أعداء الدين مواقع صوارمه كان امنعَ صونها إسارُها وأنفعَ سلاحها فِرارُها •

ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق الهمم بلوامعها ، وتشرّف الكَلِمُ بجوامعها ، وتزكو الأمم بما تنقل الالسنة منها عن القلوب الى مسامعها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا الله لنصر دينه وألهمنا تفويض مصالح أمته الى كل ولي ما رفعت راية نصر الا تلقاها عَرابة مجده بيمينه ، وعضدنا في جهاد أعدائه بأعزّ صفي ينوب بأسه للجيش عن طلعته ويقوم رأيه في الحرب مقام كمينه صلى الله عليه وعلى آلـه وصحبه الذين اختارهم لصحبته وارتضاهم وأرهفهم لإقامة ملّته وانتضاهم ، فمنهم من فاز بمزيتي سبقه وتصديقه ، ومنهم من كان الشيطان ينكب عن طريقه ومنهم من اختار الشهادة على الانتصار بطريقه ورفيقه ، ومنهم من اقامه بشرف الاخوة معه مقام شقيقه ، صلاة يبلّغه إخلاص مقيمها ويُعرَض عليه إيمانُ مُديمها وسلّم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمّا بعدُ فإنّا من حت أورنا الله ملك الاسلام لا عن كلالة ، وألبسنا في مواقف الدبّ عن دينه حلل العز المعلمة بالجلالة ومكّن لنا في أرضه وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ، ونشر دعوة ملكنا في طول الوجود وعرضه — لم نزل نرتاد لكفالة الممالك الإسلامية من تأوي منه الى ركن شديد ورأي سديد وحزم يقرّب من مواهب النصر كل بعيد ، وعزم إذا أرهف صوارمه من أدبى الصعيد ، وجف لهول مواقعها باب الحديد . فهو المطوي في أثناء ضمائرنا وإن تقلدها فله سواه « المنوي في احناء سرائرنا وانما لامرىء ما نواه قد حلب قِدَمُ مجربه الدهرَ أشطره وكتب حس خبرنه ، من عنوان السير أسطره وتسلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها وتردّدت تجارب الأمم على سعة معلم ما يأتي وما يذر في تركها واقتفائها ، واستقبل دولة أسلافنا الشريفة من فواتحها ، فكان لسان محاسنها ، وبنان مامنها ، وخزانة سرها وكنانة نهيها وأمرها ، وطليعه تأييدها ، وذريعة أوليائها الى عوارفها وجودها وعنوان أخبارها ، وعنان سوابقها التي لا تدرك مآثر من سلف نتق غبارها ، ويمين قبضتها المصرّفة من البأس والندى وأمين آرائها المؤيدة بالتوفيق اللدني على العدا ، وركنها المشيد بالأمل وهو تبنى عليه الممالك ، وحصنها المصفّح بالصفاح فلا تستطيع الأهواء أن تتوقّل اليه تلك المسالك ، وزعيم جيوشها التي اجتنت من قصب قواضبه ثمر النصر غير مرة ، ومتقدّم عساكرها التي اجتلت به وجوه الظفر الحلوه في ايام الكريهة المرة .

ولما كان المقرّ الكريم (الفلاني) هو معنى هذه الصفات المهمة ، ومبنى هذه القواعد المحكمة ، وطراز حلل هذه الاحوال المعلمة ، وسرّ المقاصد الظاهرة وسلك هذه (النجوم) الزاهية ، بل فلك هذه الدراري الزاهرة ، تحلّق صوادح البراعة فتقع دون أوصافه بمراحل ، وتغوص سوابح اليراعة ، فيلقيها العجز عن استخراج درر نعوته بالسواحل ، فأوصافه تذكر على وجه الاجمال لصبق نطاق الفصاحة عن تفصيلها ، ومناقبه تشكر بلسان الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن بلوغها الى غايتها ووصولها فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفسح مجال الهدى ، بتفويض ايالة الملك اليه ، وان نقطع آمال العدا ، بالاعتماد في زعامة الجيوش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلامية عليه ، وأن تقرّ عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والاحسان الى يديه ، وأن نصون عقائل الممالك من مهابته بما يغدو سوراً لعواصمها وسواراً لمعاصمها ، وشنباً تفتر ثغورها عن بروقه ، أو لهيباً يقطع طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ، ليعتضد الدين به بركنه ، وينغلب (على) الشرك في حالتي حربه ، ووهنه ، ويتقلب كل من رعايانا بين وهاد يُمنه ومهاد أمنه — رسم بالامر الشريف — لا زال ملكه عليّ الاركان ، راقياً من أفق النصر الى أعلى مكانة ، وأرفع مكان — ان تفوّض اليه نيابةً السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الاسلامية على أكمل العوائد ، وأجمل القواعد تفويضاً تمضي أحكامه في الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ، ولا يعدل في سلمها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه .

فلْيستقرّ في هذه الرتبة العالية استقرار الأركان المواكث ، والأطوار اللوابث ، والأصول النوابت ، والنجوم الثوابت ، مؤثّلا قواعدها برأيه السديد ورايته ، معوذاً كمالها بسيف النصر وآيته . مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه ومن الإحسان بغايته ، مكثراً أعداد الجيوش الاسلامية برأيه السعيد ، مقرّباً من مطامح النصر النائية كل بعيد ، موكّلا بحركات العدو وسكناته جفناً لا يألف الغِرار[1] وسيفاً لا يعرف القرار ، وعزماً لا يرضى مـن عدوّه دون اصطلامه الفِرار ، فلا تزال جيوش الإسلام بجميل تعاهده مُزاحة العوائق ، مزالة القلائق ، لا مانع لها عن الركوب ولا قاطع عن الوثوب . قد أعدّتها عزائمه ، فكل زمانها بالتأهب للّقاء وقت امكانه ، وأمدّت بأسَها صوارمُه ، فهي لا تسأل عن عدد عدوّها بل عن مكانه . مقيماً منار العدل الذي هو أساس الملك ودعامته ، ورأس الحكم بأمر الله في خلقه وهامته ، ونور الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته[2] ناشرا له في أقطار الممالك ، ماحياً بنور اقامته آية ليل الظلم الحالك معاضدا أحكام الشريعة المطهّرة بالانقياد اليها والاعتماد في الحل والعقد عليها

---

(١) الغرار : النوم القليل أو القليل من كل شيء .

(٢) العامة : قبض السنابل اذا اجتمعت بعد حصدها ، وجمعها عام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاحتفال برفع منارها : فإنّ ذلك من أفضل ما قدّمته الدول الصالحة بين يديها مقدماً عماره البلاد على كل مهمّ . فإنّها الأمل الذي تتفرع عنه المصالح على اختلافها ، والمادّة التي تستطيل الجيوش الاسلامية على العداة بتوسعها في إنفاقها واتفافها ، والأسباب التي تعين الغيوث على نماء ما بسط الله لعباده من أرزاقها ، وآكد مصالحها الرفق الذي ما كان في شيء الا زانه ، والعدل الذي ما اتصف به مَلِكٌ الا حفظه وصانه ، فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا المطاع ، واقتصرنا عن ذكر الوصايا بما في خصائصه الكريمة من حسن الاضطلاع وجميل الاطّلاع ، واكتفينا بما في خلائقه الجميلة من محاسن لو تخيّر نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم الطباع ، والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعل ركنه من أثبت قواعد الدين وقد جعل ، إنْ شاء الله تعالى .

كلمة في النص :

النص السابق تقليد بكفالة السلطنة كتبه الشهاب محمود كاتب السر الذي كان شاعراً كاتباً .

وهذا التقليد صادر عن رب سيف هو السلطان الى رب سيف هو الامير المحارب من المماليك المكلف بنيابة السلطنة من مرتبة الكفالة في هذا التقليد . بدأ التقليد بعد البسمله بحمد الله ، ككتاب العهد بالخلافة السابق ، ثم انتقل من التحميد الى الشهادتين بالله وبرسوله وبالرضى عن الخلفاء الاربعة الراشدين من الصحابة الكرام . وجاء بأما بعد التي انتقل بها الى صلب الموضوع ، وختم كلامه بالدعاء بالتوفيق وبقوله ان شاء الله تعالى .

وفي خلال الحمد يفخر المكتوب باسمه بقوّة دولته وهيبتها ونصرتها الاسلام وبالاعتزاز بأمراء الجند الذين ينصرون هذه الدولة . وأثناء ايراد الشهادتين يثني على من فُوّض اليهم خدمة مصالح الامة والقيام باعمال الجهاد ومنهم أعزّ صفي ببنهم الذي امتاز ببأسه وشجاعته ورأيه . وحين الترضي عن الخلفاء الراشدين بذكر من صفاتهم ما يصلح أن يكون وصفا للنائب الكافل من حيث الاستقامة والإيثار والأخوّة .

في صلب الموضوع بعد أما بعد يتحدث عن الصفات المطلوبة في النائب الكامل من حيث الكفاءة والاخلاص والشجاعة والرأي وحسن الادارة واليقظة وتمام الاستعداد ثم نبيّن أنّ هذه الصفات قد توافرت كلّها في المنتدب لهذه المرتبة (المقرّ الكريم) ولذلك رأى الجناب السلطاني تعيينه في هذه المرتبة وتفويض أمور السياسة والإدارة والحرب وكل مهام السلطنة اليه بالنيابة مع وجوده معه في حضرته .

وبعد أن يصفه بصفات مثالية يذكر أنه لم يجد داعيا لتقديم الوصايا اليه لأنّ له من كفاءاته وأخلاقه ما ينوب عن هذه الوصايا وبالحقيقة نستطيع أن نعد كل ما تقدم من مدحه بصفات مثالية بمثابة الوصايا لـه ولكنها قدمت بذوق ولباقة .

يلاحظ ان هذا النص أقصر من نص عهد الخلافة وهذا ينسجم مع القاعدة بان طول العهد يتناسب مع مقام المكتوب في شأنه .

ويرى أن هذا النص أكثر انسجاما مع الواقع وصدقا مع النفس والحقيقة ذلك لا تمويه على الشعب في قضيتي الشورى والحرية فرجل سيف هوا لسلطان يولّيه مرتبة النائب الكافل أحد رجاله لاعتماده عليه وهو مثله رجل حرب ومن الباب ، وكلاهما يفهم لغة القوة ولم يتنصّ في العهد على أنواع مشدّدة أو مغلظة من الأيمان .

وهو يصوّر الصفات المثالية التي يجب أن يتصف بها رجل السلطة من حملة السيوف في ذلك العهد .

وأسلوب النص مطنب تكثر فيه الجمل المترادفة وقد التزم فيه السجع والصناعة البديعية من طباق وجناس وتورية واقتباس .

وهو لصناعته ومتانة نسجه وما حلّه فيه كاتبه من الشعر ، وما استعمله فيه من الصور البيانية الكثيرة ومن الألفاظ العذبة والتراكيب الجزلة يكاد يكون شعرا لولا فقدان الوزن والإطناب ويكفي متالاً على ذلك أن ننتبه الى أنه قرب خاتمة العهد قد حل البسط :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلو صوّرنَ نفسك لم تزدْها على ما فيك من كرم الطباع

والسجع ظاهر في جميع العهد لا ضرورة للدلالة عليه وكذلك الجناس : المصفح بالصفاح ، والطباق : نهيها وأمرها ، والمبالغة : اذا أرهف صوارمه من أدنى الصعيد وجف لهول مواقعها باب الحديد .

ونظهر كثافة الصور البيانية في قوله :

فهو المطوي في أثناء ضمائرنا وإن تقلّدها قبله سواه . والمنويّ في أحناء سرائرنا وإنما لامرىء ما نواه : قد حلب قِدَمُ هجرته الدهر أشطُره وكتب حسن خبرته من عنوان السير أسطُره ، وتمثلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها ... الخ .

وهذا الاسلوب ينسم بالحيالية الشعرية . ومثل ذلك قوله :

وزعيم جيوشها التي اجتنت من فصب قواضبه ، ثمر النصر غير مرة ، ومُقدّم عساكرها التي اجتلتِ به وجوه الظفر الحلوة في أيام الكريهة المرة .

هـ ـ نصان منه في الانشاء الوصفي (الكتابة الاخوانية)

نص لابن نُباتة في وصف زيادة النيل زيادة مفرطة (جاء في صبح الأعشى للقلقشندي في الجزء ١٤ ، ص ٢٧٤) .

مقدمة القلقشندي :

« ومما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوانح نظمها ونثرها وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب اختر من دُرّها ، فسبحان من يسّر له ممتنع الكلام وهوّنه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه . فما أشف دقيق فكره الجليل وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات النيل فما كان الا مخصوصاً في الادب ببحر الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة يزري بالفرات وابن الفرات . وإنْ قيل : أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد يقال قول ابن نباتة :

فلا عجب للفظي حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النص :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبّت فيها قدمه وامتدّ نصل تسّاره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم وهذا الاحمرار انما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت والدمُ في النصل شاهدٌ عَجَبُ

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفّاه ولا وهدا بل جبلا إلا أخفاه ، أقبل كالأسد الهصور اذا احتدّ واضطرم • وجاء من سِنّ الجنادل فتحدّر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم • وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيّد بالنصر قائلا : ان كنتُ بليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أفيض بأن أرميَ من بروق تباري بشرر كالقصر •

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل وسمعنا عنه كل خبَر خير ثابت ويزيد كما قال جميل ، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضرّ بخلاف المشهور عن صبغة الليل وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة ، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة ، ومنحناه ، بولاء وثناء هذا يدور من الاخلاص بفلكه وهذا يعذب من البحار بنقطة • كم ورد الى البلاد ضيفا ومعه القرى • وكم أتى مرة لا بمعجز آيات الخصب الى أهل القرى ، فهو جواد قد خلع الرسن ، ساهر في مصالح الخلق وقد ملأ الأمنُ أجفانهم بالوَسَن ، جامعٌ لأهل مصر من مشياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كما بات سير مقياسه يشمل بظلّه الغائبين والحاضرين ، وكم رفع على الوفاء راية صفراء[1] فاقع لونها تسر الناظرين وبلغ وبلّغ بخرير التيار سلامه ، وبان بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة ، وخلّق صدر العمود ، وكيف لا يتخلّق بشير العباد والبلاد ، ودعا مصر لأخذ زخرفها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد • وبسط يده ببركة الماء فقيل : سلام لك من أصحاب اليمين : وخضّب بنانه • وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب البنان يمين ، وأشار الى وصول المدّ المتتابع وقبض يده المخلّقة على الماء فوقت وما خابت فروج الأصابع ، ونادى رائد الوفاء ،

---

(١) الراية الصفراء شعار الدولة المملوكيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن كم حياه في الارض لمن ينادي . ونست أصابع الزيادة ونسب حتى قال الناس : ما ذي أصابع دى أيادي .

هذا وقد قرنت زرابيّ الدور المبثونة بالنسارق . وقال المقياس : تغطّت منها الدّرَج فنال الرجاء وظهرت الدقائق ، فهو جم المنافع عذب المنابع ، يُستسار في الحفيفة والمجاز اليه بالاصابع .

فأعاده الله الى دلك النفع المعهود . وآرانا منه الأمان من الطوفان الى أن نرد الحوض المورود ، وكفى أهل مصر هذه المصيبة التى إذا أصابتهم قالوا : إنا لله وإنّا اليه راجعون . ولا ابتلاهم بمثل ما ابتلى بـــه قوما جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشَوْا ثيابهم فإنّما يستغشي ثيابه منهم الفقراء في المطر ويجعل أصابعه في آذانه منهم المؤذّنون ، اللهم انك وليّ النعمة ، وأوْلى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة » .

كلمة في هـــذا النص :

أورد المؤلف نصّ ابن نباتة فمن جملة نصوص وردت في وصف زيادة النيل تلك الزيادة المفرطه التي يخشى فيها من أدى طوفانه .

وهذا النص من جملة النصوص غير الديوانية وهو كما ترى في وصف الطبيعة القوية الطاغية وقد ورد ضمن الرسائل التي توصف فيها الحوادث والماجريات وقد رأينا أنه يعني بالرسائل ما يكتبه الادباء في غير المكاتبات الديوانية .

وقد قدّم للنص بتعظيم أدب ابن نباتة شعره ونثره واعتزاز ابن نباتة نفسه بأدبه وحلاوه لفظه في البيت الذي أورده له . وقد جعل زهر أدبه يضحك ويزري بزهر مقطّعات النيل كما جعل لفظه أعذب من الفرات ويزري بابن الفرات الشاعر المشهور .

وهو يصف ماء النيل بقوة الاندفاع وباحسرار الماء والعلو في مبالغة ظاهرة فقد جعله يبلغ أقصى الهرم . وهو حائر بين غبطته بزيادته وسروره بما تأتي به من خير وبين خوفه من أذى زيادته المفرطة ورجائه ألا ينقلب الى مصيبة بقول الناس معها إنا لله وإنا اليه راجعون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونراه يشيد بخيرانه ويعنى بوصف زيادته على الحد الأعلى لمقياسه : فوفى وزاد وعم بخيره البلاد • ويختم كلامـه بالدعاء الى الله أن يحفظ الناس من افراط فيضه •

وتبدو ثقافة الكاتب الادبية في كثير من العبارات كقوله : « يزيد كما قال جميل وهو يشير بذلك الى بيت جميل بثينة :

اذا قلتُ مابي يا بثينةُ قاتلي من الحبّ قالت : ثابت ويزيد

وتبدو شاعريته في صناعة نثره وأخيلته القريبة من الشعر وفي استشهاده بالشعر خـلال نثره •

وقد أغرق في السجع وفي سائر ألوان الصناعة البديعية كالاستخدام في قوله : وبلغ وبلّغ بخرير التيار سلامه • وأكثر من الصور البيانية ومنها قوله : « وخلّق صدر العمود وكيف لا يخلّق بشير العباد والبلاد » • وجميع كلامه على هذا النمط ، واقتبس من القرآن : « وقد قرنت زرابي الدور المبثوثة بالنمارق : وضمن الشعر : وما خابت فروج الاصابع « ما ذي أصابع ذي أيادي » وخياله جميل وألفاظه رقيقة •

٢ ــ نص من [illegible] وهو في المناور :

قال[1] في « التعريف » : « وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار » •

وذلك أنّ مملكة إيران لمّا كانت بيد هولاكو من التتار • وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة (يريد مملكة السلاطين المماليك في مصر والشام) • كان من جملة احتياط أهل هذه المملكة أنْ جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهاراً للإعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول

---

(١) يقصد ابن فضل الله العمري مؤلف كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو من رجالات العهد المملوكي التركي . ومؤلف « مسالك الأبصار في ممالـك الأمصار » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاد لحرب أو اغارة . وهذه المناوره باره تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عاليه ومواضعها معروفه يعرفُ بها أكثرُ السفّاره ، وهي من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبه ، وإلى حصره السلطان بقلعة الجبل حتى إنّ المتجدد بالفرات إن كان بُكرة علم به عشاء ، وانْ كان عشاء علم به بكرة « ولسا يُرفَع من هذه النيران أو يدخّن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالاتِ رؤيه العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد وتارة في غير ذلك ، وقد أرصد في كل مَنور الديادب[1] والنظّارة لرؤية ما وراءهم وإيراد ما أمامهم ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت ولا تزال دارّة . قال وكان يُنوّر بمدينة عانة من تلك المملكة فوم من النصّاح بحجة أمر سوى التنوير ويستر عليهم أهل البلد حبّاً للملوكنا فترى نارة ناره أو دخانه بخربة الروم وبالجرف أيضا . ويرفع فيهما أو في إحداهما فترى من كل منهما بوادي الهبكل ... » (وبعدّد بعد ذلك كيف ترفع النار من مركز الى مركز حتى تصل الى السلطان في قلعة القاهرة) .

هذا النص ليس من إنشاء القلقشندي وانما هو نص من كتاب التعريف أحد مراجع المؤلف التي ذكرناها قبل .

وهو هنا يشرح صوره استعمال هذه النيران والأدخنة وارسالها على أشكال مختلفة للدلاله على الاحوال المختلفة المقصوده . ويذكر أماكنها من الجبال والابنية ومراكزها المساليه وصفاً واضحاً دقيقاً ويتبين من هذا الوصف أهميتها في سرعة نقل أخبار العدو وفي الحرب والسلم وهي جزء مهم من أعمال رجال المخابرات حينئـذ .

ويلاحظ في آخر ما أوردناه من النص كيف كان يتستر الناس على مرسلي هذه النيران من البلاد الخاضعة للعدو لأنهم يعرفون أنّه عدوّهم ويرون أن سلطانهم الشرعي هو السلطان القائم في القاهرة .

ويدلنا النص على أنّ المماليك استفادوا من العيون والارصاد في البلاد التي

---

(١) الدبادب جمع دبدبان وهو الحارس . والحوامك الرواتب مفرده على القياس جامك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خضعت للنتار ليكونوا دائما على استعداد وتعبئة ، وأنّ عمل أولئك العيون والارصاد كان لوناً من الكفاح العقيدي ضد المحتلّ .

والنص مشوّق عني بالمعلومات المفيدة خال من الصنعه والتكلف سهل الاسلوب مألوف الألفاظ ولم يخلُ من استعمال بعض الالفاظ الأعجمية المعرّبة (كالديادب) و (الجوامك) .

ملاحظة خاتمة :

كان آخر ما ختم به المؤلف الكتاب حمده الله على أن هذا الكتاب قد راج سوقه فنسارع الناس الى تناسخه إعظاماً لقيمته .

ولا يذكر المؤلف ذلك منبجّحاً بل متواضعاً فرحاً بأنّه قدم الى إخوانه الكتّاب ما يعجبهم ويفيدهم .

ونختم نحن حديثنا عن هذا الكتاب بأنّه فد سد ثغرة في تاريخنا الحضاري الادبي الديواني حبّذا نحن لو وعينا واجبنا فعرفنا كيف نسدّ مثل هذه الثغرة في عصرنا وسعينا جاهدين الى القيام بواجبنا نحو أنفسنا وأمتنا ووطننا ، وبأن النصوص التي أوردناها للقلقشندي وغيره من كتّاب العهدين المملوكيين كانت تسودها الصناعة البيانية والبديعية ولكنّها اذا قيست بنصوص القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الأثير في العهد الايوبي ظهر أنها أسهل أسلوبا وأوضح معاني وأقل تكلفاً وأكمل طريقة وأقرب فهما وأكثر ملاءمة لمقتضى الحال في الكتابة الدبوانية وفي الكتابة الإخوانية ، من حيث الدقة والوضوح وسهولة الفهم وتجنّب الالتباس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة العامة
في ظل الدولة العثمانية

المامة عامة موجزة(١) :

بدأ قيام الدولة العثمانية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي على أنقاض الدولة السلجوقيه التركية في الأناضول وأخذت ستولي على أجزاء من الدولة البيزنطية واستمرت امارة تحيط بها الدول المجاوره مدة سبعين سنة فاضطرت ان تبقى دائما في حالة حشد واستعداد دائم للحرب واتخذت بروسة عاصمة لها ثم استولت على قطعة من الارض الاوروبية فحولت عاصمتها الى « أدرنة » واستولى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م على القسطنطينية التي عجز عن فتحها القواد الكبار من العرب وغيرهم ، ففتح بذلك أفقا جديدا لامبراطورية تركية واسعة فقد استطاع باستيلائه على مضيقي البوسفور والدردنيل أن يثبت قدميه في كل من آسيا وأوروبا واستطاع خلفاؤه من بعده أن يوسعوا امبراطوريتهم بحيث أصبحت تضم البلاد العربية وجزءا واسعا من القارة الاوروبية ، ونمكن قائده البحري خير الدين باربا روس باشا هو وأخوه من أن يستوليا بفضل الجيش والاسطول التركيين القويين على الجزائر وأن يسيطرا على البحر المتوسط ثم استولى خير الدين على جزء كبير من تونس . وجاء سنان باشا الألباني فأكمل الاستيلاء على تونس وأرسل في سنة ١٥٦٨ م من مصر وكان يحكمها حينئذ حملة الى اليمن استكملت الاستيلاء عليه حتى وصلت الى رأس الخليج العربي ولم يكن الاتراك قبله قد استولوا الا على عدن ومسقط .

واستطاع سنان باشا أن يطرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب وأن يستولي عليها ويستكمل شمال افريقيا ما عدا القسم المرتفع من مراكش المسمى موريتانيا ، على أن طرابلس وتونس والجزائر بقيت شبه مستقلة وكانت تتبع الباب العالي اسماً ، وكان الحكم فيها وراثياً عسكرياً فردياً يدلل فيه الحاكم على خضوعه للسلطان العثماني بارسال هدية اليه تقوم مقام الجزية وقد أصبحت سلطة

---

(١) ملخصة عن تاريخ العرب لفيليب حتي مع بعض تعليقات واستشهادات من الشعر في هذا العصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكام شمال افريقيا بعد ذلك أكبر من سلطه حكام سورية ومصر حين ضعف الاسطول العثماني في البحر المتوسط .

وكانت أعمال القرصنة تدر أرباحاً كبيره على حكومات شمال افريقيا وشعبها وكان القراصنة فيها يشتركون مع الاسطول التركي في معاركه ضد أعدائه وكثيرا ما كان يعمل معهم منفيون من اسبانيا ، وقد بلغت القرصنة أوجها في النصف الاول من القرن السابع عشر . ثم كافحتها كل من انجلترا وفرنسا وأجبرتاها على عدم التعرض لهما على أن الدول الصغرى ، ومنها الولايات المتحدة حينئذ ، استمرت تدفع الجزية لها لتسمح لسفنها بالمرور حتى استولت فرنسا على الجزائر فتحولت القرصنة من الافراد اليها والى الدول الاستعمارية الاخرى التي أخذت تستعمر الشعوب فجعلت القرصنة عامة تشمل البر والبحر وجميع الشعوب المستضعفة .

تمت أكثر الفتوحات في شمال افريقيا في عهد سليمان الاول ابن سليم وبلغت الدولة العثمانية أوجها في عهده فأخضع أكثر بلاد المجر (هونغاريا) وحاصر فيينا وافتتح رودس وامتدت سلطته من بودابست على الدانوب الى بغداد ومن شبه جزيرة القرم شمالا حتى شلال النيل الاول جنوبا .

وتولى السلطان مراد الرابع السلطنة سنة ١٠٣٢ هـ ثم غزا بلاد فارس سنة ١٠٤٤ هـ زمن الشاه عباس وفتح « روان » وفي سنة ١٠٤٨ هـ فتح بغداد بعد حصار ٤٠ يوما ، وقتل عشرين ألفاً من الفرس .

وقال المحبّي (خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ٣٣٩) : « أكثر الناس من نظم الشعر والتواريخ لفتحها ومن ذلك قول تاج الدين المالكي :

خليفةُ الله مرادٌ غزا ... قلعةَ بغدادَ فأرداها
وعندما حاصرها جيشه ... اندكّ للأسفل أعلاها
وأصبح الشاهُ ذبيحاً كما ... أُخبر عن كثرة قتلاها
هذا اختصارُ القول فيها فإنْ ... قيل لقد اجملتَ ذكراها
فلتشرحَنْ فعل مرادٍ بها ... مؤرخا ، قد ذُبِحَ الشاها

ووقع في زمنه سيل كبير أغرق مكة وهدم الكعبة فعُدّ من مآثره بناؤها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان عاشرَ من بناها فأرّخ دلك أحدهم نثرا بقوله : « رفع الله قواعد البيت » • وقال أحدهم :

وخاتمُهمْ من آلِ عثمانَ بدرُهمْ
مُرادُ المَعالي أسعد الله شارقَهْ

« خلاصة الاثر ٤ : ٣٤٠ ــ ٣٤١ »

تولى بعده أخوه السلطان ابراهيم بن أحمد سنه ١٠٤٤ هـ وفي عهده فتحت قلعة القوزاق سنة ١٠٥ هـ وقلعة خانية بجزيرة أقريطش (كريت) دون قلعه (فندبة) الحصينة • وقد مدحه الأمير منجك صديق ابن النقيب فقال :

لو كنت أطمعُ بالمنام نوهتُما
لسألتُ طيفكِ أن يزور تكرّما

* * *

ملكٌ من الإيمان جرّد صارما بالحق حتى الكفرُ أصبح مسلما
لو شاهد المطرودُ[1] سطوة بأسه في صلب آدم للسجود تقدّما
العدل أخرسَ كان قبل زمانه أذنت له الأيام أن ينكلما
لم تخطُ آسادُ الفلا في عهده بين الشقائق خِيفةً أن تتهما
عقد المُثار على العُداة سحائباً لولا الحيا لسقى العِدا منها دما
ودعت ظُباه الطيرَ حتى إنّه قد كان يُسقط فرخُه نسرَ السما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

* * *

وعزل ابراهيم فتولى مكانه ابنه محمد الرابع وهو صغير السن فتهاون به رؤساء الدولة واضطربت الامور حتى تولى الصدارة الوزير محمد باشا كوبرلي فقضى على الفساد الداخلي ثم افتتح قلعة (ينوه) وبعض القلاع الاخرى •

(١) المطرود : ابليس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقامت ثورة في بلاد الشام خلال عبابه بزعامة والي حلب ووالي دمشق وجمعٍ كبير من العسكر فقتل الثائرون مع من ناصرهم من سكان البلاد .

وخلف محمد كوبرلي ابنه أحمد كوبرلي وكان عهده حتى أواسط مدته خير العهود رونقاً وحفظاً للدين وتنفيذا لاحكام الشريعه . وقد أسهم في الفتوح وهزم بوار المجر .

وتمّ على يديه فتح قلعة (قندية) بعد حصار سنتين ، صلحا سنة ١٠٨٠ هـ فسلّمها اليه قائدها « موروزفين » .

« خلاصة الاثر ٤ : ٣١١ ، و ١ : ٣٥٣ »

وقد عظم الفرح بهذا الفتح وعمت البشائر ونظمت فيه التواريخ ، ومدحه ابن النقيب (ت ١٠٨١ هـ) بقصيدة مطلعها :

ما آل برمـــك في ذرا بغـــداد يوم الفخـار ولا بنـو عَبّاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ ــ ٩٣ »

كانت الامبراطورية العثمانية أطول الدول الاسلامية عمرا ، امتد حكمها من سنة ١٣٠٠ م حتى سنة ١٩٢٢ م على تفاوت في الضعف والقوة والسعة والضبق بين مختلف عهودها .

قام نظام العثمانيين على سلطة الأسره وعلى القوة العسكرية وكان الهدف الرئيسي من الحكم مصلحة السلطان ومن يليه من الحكام وليس مصلحة الرعايا التي كانت تضم قوميات وبلادا مختلفة وأديانا متعدده وثقافات متباينة متفاوتة ولا يجمع بينها الا الخضوع لقوة السيف . وكان الفلاحون الاتراك أنفسهم معدودين في جمله الرعايا فقد كانوا يخضعون لافراد الطبقة الحاكمة ، وكان الاتراك أقلية بالنسبة الى مجموعة الشعوب التي سيطروا عليها ، ولم يحاولوا أن يستعمروا البلاد العربية أو يحلوا جاليات تركية فيها الا في بدء القرن العشرين حين قاموا بمحاولة التتريك على أساس نقل أسر عربية الى الاناضول وأسر تركية الى سورية وغيرها . وكانوا يسمحون لانفسهم بالزواج من غير المسلمات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستخدمون في أعمال الحكومة شبانا غير مسلمين وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون في الاسلام مجددين بذلك حيوية الدم التركي عن طريق التمازج المستمر ، وقد وصل كثير من الجراكسة واليونان والألبانيين والسلاف والطليان والأرمن الى أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى (أي رئاسة الوزراء) .

حملت هذه الدولة بذور الانحلال في طياتها لانها تكونت من خليط غير متجانس لا يمكن أن يثبت أمام دول مناهضة مجاورة تسودها قومية واحدة . ومما زاد في ضعفها نظام الملة ، وهو ترك الطوائف الدينية تتمتع بقدر كاف من الاستقلال الذاتي حاولت فيه الدولة العثمانية ان تحلّ مشكلة الأقليات .

ومن أسباب الضعف أيضا تركيز السلطة في يد رجل واحد هو السلطان الخليفة[1] ، وعدم وجود نظام دقيق للاستخلاف فكثيرا ما كان أبناء السلاطين يقتل بعضهم بعضا أو يدسّ بعضهم لبعض في سبيل السلطة .

ومن أسباب الضعف عدم تجديد النظام العسكري الانكشاري فقد كان في أول الدولة رائعا وكان له الفضل في النصر ، ولكنه فسد بعد وأصبح علة ضعفها وانكسارها لأن السلاطين لم يراعوا عوامل الزمن فيجدّدوه الا حين لم يعد ينفع العلاج زمن السلطان محمود الثاني ، بسبب ضعف الدولة ، وقد انتهز محمد علي باشا حاكم مصر فرصة محاولة التجديد ليوجّه الى الامبراطورية ضربة قاصمة كادت تقضي عليها لولا وقوف انجلترا بجانبها .

وقف سيل الفتح التركي منذ خيبة الجيش في الاستيلاء على فيينا سنة ١٦٨٣ م وأصبح هم الاتراك أن يجدوا الوسيلة للاحتفاظ بما فتحوه وتحولوا الى مدافعين .

ومن أسباب الضعف نظام الجباية الذي كان يضمّن لاناس يستغلّون الشعب ولم يكن ليهتم السلطان أو الحكام الا بالحصول على أكبر قدر من المال ولذلك كان ملتزمو الضرائب للسلطان أو للوالي يفتنّون في فرضها على الرعايا ، وفي ابتزازهم .

---

(١) لم يطلق على السلطان لقب الخليفة الا في عهد متأخر في القرن التاسع عشر الميلادي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الغزي : « ولما بلغ الإمامَ عليَّ بن محمد المقدسي (٨٥٦ ــ ٩٣٤ هـ) ان العثمانيين صربوا الجزية حتى على المومسات تنخّع الدم من كبده ، وتمنى الموت ، للقهر الذي أصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغيّر الاحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا ... بدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشة ... فهي تبكينا ونبكيها معا

قد دعا من مسّه الضُرُّ من الظلم والجور اللذين اجتمعا

فعلا السحبَ دُعا فانبعثت ... غارةُ الله بسا قد وفعا

فأصاب الشام ما حلَّ بها ... سُنةُ الله التي قد أبدعا

« الكواكب السائرة ج ٢ ، ص ١٩٣ »

فالغزي يأسى هنا لما أصاب الشام من بلاء بسيطرة العثمانيين عليها وارهاقهم أهلها بالمظالم . والابيات وان كان ظاهرها التشكي من أهل البلد أنفسهم وان ما حل بها هو نتيجة الفساد فيها واستجابة من الله للمظلوم من أهلها . الا أنها تتضمن التشكي من الدولة العثمانية التي أوصلت الامة المحكومة الى هذه الحال من البؤس ، وهي تتضمن ضرورة اصلاح الناس أنفسهم وأخلاقهم وضرورة تضامنهم ليرتفع عنهم غضب الله وأذى الظالم وهي ترتدي الطابع المستسلم للاقدار غير أنها تدعو دعوة مستترة الى عدم الرضا بالظلم وفيها تكرار لا مبرر له الا تأكيد معنى الظلم في أذهان الناس وفيها طلاوة تعبير وموسيقا جميلة كقوله : فهي تبكينا ونبكيها معا ، ولكن فيها كذلك تهربا من مجابهة المسؤولية ومن التخطيط لتغيير الحال .

ومن أسباب الضعف أيضا نظام الاقطاع الذي جعل أصحاب الارض الكبار ينصرفون عن الإعداد للحرب الى الاستمتاع بما تدرّ عليهم أراضيهم الواسعة وثرواتهم الطائلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويضاف الى الاسباب السابقه طمع الدول الاوروبية القوية في أن تحصل لدى تركيا على مناطق نفوذ ، وذلك حين ضعفت الدولة العثمانية وأصبحت تسمى ، سخريةً ، بالرجل المريض . ولم يكن يحفظ الدوله من الانهيار التام الا تحاسد القوى الطامعة فيها واختلافها على تقسيم الغنيمة وعدم اتفاقها على عمل موحّد ضدّها ، فلمّا قامت الحرب العالمية الاولى وانتهت بهزيمة الدولة وحلفائها كان في ذلك نهاية امبراطوريتها الشاسعة وافتصارها باسم الجمهوريه التركية على الاناضول وجزء صغير جدا من الساحل الاوروبي .

وقد قلنا في مقدّمة الكتاب أن العهد العثماني ينقسم الى ثلاثة أدوار : دور القوة ، ودور التوازن والضعف ، ودور الانحلال ، وعينا بدايات هذه الادوار ، ونهاياتها وقلنا بأن السلطان سليمان القانوني قام باصلاحات هامة في عهده سمي من أجلها بالقانوني وأفادت البلاد كثيرا ولا سيما في ناحية العلوم والمدارس وتخريج موظفين للدولة وعلماء ؛ ولكنّها فسدت بعد كما فسد كل شيء غيرها . فليرجع الى المقدمة لتذكّر ذلك .

وننبّه هنا الى أن الرحلة في طلب العلم قد استمرت في هذا العهد ، كما استمرت وحدة الحركة الفكرية فلم تظهر فيها أي نزعة إقليمية أو تفرقة في تحصيل العلم بين قطر وآخر .

حال الشعر في العصر العثماني ومدى الاهتمام به

كان بعض شعراء العصر العثماني المتفوقين على أقرانهم يرون أنهم خبر ممكّن تقدمهم من الشعراء الفحول برغم تأخر زمنهم وبرغم فقد الكرام من العظماء الذين يهبون الجوائز الكبيره ويشجّعون الأدب ويتذوقونه ويشاركون فيه

يقول الشهاب الخفاجي في مقدمته لـ « ريحانة الألباء » يفضل معاصريه على المتقدمين في الشعر ويعتذر لتقصير بعضهم (ص ٦) :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« والرؤساء شعراء لا ينظمون ولا ينثرون ، وما فيهم من صفات الشعراء الا أنهم يقولون ما لا يفعلون ، واذا كذب مادحٌ أحدهم اهتزّ وطرب ، وجازى من سراب وعده بكذب على كذب ، وبالوعد الفطير لا يُخمّر الحصير .

* وبأحسنتَ لا يباع التسعير *

وبرعد الوعد ، لا يسقى غرس الحمد

فلا تلوموه في وعد يردّده

في وقت مدحي له علّمته الكذبا

ومع هذا فكم هبت لهم أنفاس معطرة بالنجاح ، مزرية في وقتها بأنفاس الصبا في الصباح ، يهزّ لها السماحُ هيف معاطفه ، وينشر تحت أقدامها الزمانُ بساط عواطفه ، تتمسك كفّ الشّمال بأذيالها ، وتتنفّأ العشاق في هجير الأشواق ضافي ظلالها ، وترد صافي زلالها ، من كل حديث تليد وطارف له وشي على كاهل المجد ولا كوشي المطارف ، تزهو به الطروس على صفحات الخدود المحسّنات بالسوالف . في كل ورقة منها خمائل ، تسوغ مياه فصاحتها في لهوات الجداول .

تكاد يدي تندى إذا ما لمستُها

ويَنبُتُ في أطرافها الورَقُ الخُضْرُ

من كل من ألحق المتأخر بالمتقدم في تطبيق مفاصل معانيه ، وإخراج مخبآت عطره من جَوْنة مَبانيه ، وإنْ تأخر عصره فلا بأس ، في تأخر النتيجة عن القياس والخدم تتقدم بين يدي السادة ، والسّنن أمرِ بتقديمها على الفروض في العبادة ، وتقدّم الآحاد ، يرقى مرتبة الاعداد .

أو ما ترى أن النبي محمدا فاق البرية وهو آخر مرسل

ا فيا أدلاء الهدى إني آنست من جانب الطور نارا بها تهتدون ، أو آتيكم بشهابٍ قَبسٍ لعلكم تصطلون فان لم يترك الأوّل شيئا للآخر ، فخير من الكثير الغائب القليل الحاضر ... » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا الكلام يدلّ على إعجاب بالنفس وغرور ، ولكنّ قائله أديب مُجيد شعراً ونثراً على الحقيقه وفق دوق عصره • ولقد استمرّ الاهسام بالشعر في هذا العهد حفظا ومذاكره وانشادا ومدحا للعظماء أحيانا في جميع أصقاع المِنطقة العربية •

ولأحمد البربير الدمياطي المولد البروتي الاصل الدمشقي الوفاة (ت ١١٢٦ هـ = ١٨١٤ م) كلام لطيف في الثقافة الضرورية للشاعر وفي علو جاهه : « ••• ان الانسان لا يستحق الوصف بالشاعر ، الموجب له العزّ والترف ، إلاّ إذا احتوى من كل علم من العلوم على طرف ، وذلك لان الشاعر من ينظم في كل فن ، ولا ينظم في كل فن الا من دخل حانات العلوم فشرب كأسا من كل دنّ » • (أسـامة العانوتي ، ص ٥٣ • الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر) •

وكان الشعراء في هذا العهد ، كما كانوا في العهد المملوكي ، كثيرين • وكل من الريحانة للخفاجي ، ونفحة الريحانة وخلاصة الاثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي ، وحلية البشر للبيطار ، يطالعنا باسماء كثيرة لهم تعد بالعشرات وأحيانا بالمئـات •

وترجع كثرتهم الى ما كان للشاعر من جاه في مجتمعه ولما كان يناله من خير أحيانا لدى حكام البلاد وأعيانها ، والى سحر هذا الفن في نفسه وفي نفوس الناس حوله • وكان نظم الشعر زينة لصاحبه وهواية محبّبة سائدة لا يُعفّي عليها الزمن ولا تضعضها الأحداث •

وكان الشعر ضرورة لازبة للانسان المثقف ، فلا بد من أن يشارك بنصيب من الشعر قلّ أو كثُر ، ولا بدّ من أن يسرن عليه حتى يسهل عليه النظم ، وقد يُضطرّ الى مطارحه مع أحد أصدقائه أو معارفه أو أنداده أو خصومه •

ولعلّ الذي كان يشجّع عليه سهولةُ كثير مما كان يقال وسطحيته •

على أنّ هذا العهد لم يعدم شعراء كانوا قمّة في حياتهم بالاضافة الى غيرهم ، كابن النقيب ومنجك في القرن الحادي عشر الهجري •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان أكثر السعراء الهواة يقولون الشعر مع انصرافهم الى حرفهم العلمية أو العملية الصناعية فلم يكن ينتظر منهم أن يبدعوا أو يحلّقوا • ومن انصرف منهم الى الشعر لغناه ورفعه مكانته الاجتماعية ، كابن النقيب فلا يعدّ شاعرا محترفا بل هاويا مجيدا بالقياس الى عصره •

وكانوا يكثرون من نظم المقطوعات في فكرة عابرة أو عاطفة طارئة أو بارقة خيال أو نكتة فاحشة أو ضحكة مُجلجِلة مستجيبين الى رغبتهم في النظم دون إرهاق أنفسهم •

وكان الى جانب المقطوعات قصائدُ طويلة في المدح ، والمدح النبوي ، والغزل ، والرثاء وغير ذلك من الموضوعات •

وكان لغياب العنصر العربي عن الحكم أثر في ضعف الشعر فلم يكن الحاكم ناقدا ناميَ الذوق الادبي يستطيع أن يفرق بين جيد الشعر ورديئه الا اذا كان قد تثقف ثقافة عربية أدبية جيدة • وهذا لم يكن يتاح الا قليلا •

ولمّا كان أكثر الشعراء كما قلنا يحترفون عملا آخر فهُم إمّا عالم تثقف ثقافة أدبية فلم يسلَم شعره من الجفاف العلمي الذي عرف به العلماء الشعراء وإما صانعٌ ضئيل الثقافة يتصف شعره بفقر المعاني والصور وهلهلة الأسلوب واللغة وخشونة المشاعر •

ووُجد أحيانا بعض شعراء لا يأنفون من ذلّ السؤال بشكل مُزْرٍ • يقول نصر الله الطرابلسي الحلبي (مما أورده الطباخ في أعلام النبلاء) :

ولم يبــق الا ماءُ وجــهٍ أرقتُه وحسبي بشعري شاهدا ومترجما

ولا يزال ما بين أيدينا من مطبوع الشعر العثماني قليلا وأكثر ما خلّفه شعراء هذا العهد وأدباؤه مخطوط في مكتبات الغرب أو الشرق وبعضه ضائع أو مفقود • ولذلك قد تكون أحكامنا عليه قاصرة تقبل النقد والتغيير •

ومصادرنا التي نستقي منها نصوصه وأحكامنا عليه هي دواوين الشــعراء وكتب الادباء التي طبعت ، وكتب التاريخ أو الموسوعات أو التراجم •

ونجد أحيانا لمعات مشرقة لدى بعض الشعراء سنشير الى بعضها في حينه • ومن عندهم أمثال هذه اللمعات منجك وابن النقيب والخفاجي ، الذين يمكن أن يعدّوا بمجموع شعرهم لامعين بين أقرانهم •

وكان كثيرون من أدباء هذا العهد يجمعون بين الشعر والنثر كأدباء العهد المملوكي قبلهم ، وينظمون في الاغراض المختلفة ويفندون بالشعراء السابقين •

ولم يكتفوا بالاغراض التقليدية ، بل اهتموا بالألغاز والأحاجي والمعمّيات • وانتشر بينهم فن التاريخ بحروف الأبجدية شعرا ونثرا •

وكذلك نظموا في الفنون الشعرية المستحدثة التي أشار اليها المحبي وهو يترجم للشاعر الحريري رجب بن حجازي الجسمي (وهو شاعر زجال توفي في مدينة حلب سنه ١١٠١ هـ) فقال :

« وله كثير من الازجال والرباعيات والمواليا ، والموشحات والتواريخ ، والأحاجي » •

وقد أشار في تتمة هذا الكلام الى طابع اتّسم به هذا الشاعر وكان سمة لكثيرين من شعراء هذا العهد وهو سهولة النظم فنراه يقول :

« ••• وكل ذلك كان يقع له من غير تكلف رويّة ، بحيث انه في ساعة واحدة ينظم مئة بيت ومثلها قطعةً أو قطعتين من الزجل والموشح ، وقس على ذلك البواقي » •

« المحبي ، خلاصة الاثر ، ج٢ ، ص ١٦٠ »

ويرتبط بسهولة النظم وسرعته سهولة الألفاظ والتراكيب وسطحية المعاني وقرب الصور والاعتماد على محفوظات الشاعر من النثر والشعر •

وكانت زيادة التصنع في الفنون والاغراض المختلفة من سمات هذا الشعر • ولكن بعض الشعراء كابن النقيب ومنجك كانوا يخالفون التيارات العامة السائدة أحيانا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما بدا لنا بحسب مطالعتنا حتى الآن هو أنّ الدورين الاول والثاني من هذا العهد كانا أكثر وأحسن إنتاجا من العهد المملوكي الثاني الذي بدا لنا فيه انتاج الشعر ضئيلا سيئا . فإما أن يكون ذلك من قصور مطالعاتنا في العهد المملوكي المذكور وعدم استيفاء المراجع ونقصها ، وإمّا أن يكون من ضياع كثير من آثار الشعر فيه ، أو من قصور الذين ترجموا للادباء فيه فلم يذكروا في تراجمهم مقادير كافية من شعرهم الجيد في مختلف الموضوعات من أمثال ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » والسخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » والغزي في القسم الأوّل من كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » . فقد تجلّى لنا أنّ المترجِم اذا كان أديبا دواقة فإنّه يُعنى بالنصوص المستجادة للشاعر في مختلف الموضوعات أثناء ترجمته وذلك ما فعله كلٌّ من الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباء » والمحبّي في « نفحة الريحانة » وفي « ذيل النفحة » .

وهذا ما كان قد فعله الأصفهاني في كتابه « الخريدة » حين ترجم لشعراء عصره .

وقد يكون فرط الضعف الذي ظهر لنا في العهد المملوكي الجركسي راجعاً الى أنّ الأمة قد خارت قواها بعد الحربين الكاسحتين الصليبية والتتارية ، وبعد المصائب الطبيعية الكثيرة المتوالية من زلازل وطواعين وأوبئة ومجاعات ، فاستسلمت الى النوم .

ومن أمثله الشعر الضعيف في هذا العهد قول حسين الأدكاوي يرثي الشيخ العشماوي :

يا أمّة الإسلام يا أهلَ الهدى	علماء منهم مبتدى أو منتهى
قد مات عشماوثكم نبّأ لمن	بالمجد عن ثوب التأسّف ينتهى
مَنْ بعده للترمذيّ ومسلمٍ	أو للبخاريّ الصحيح الأوجه
فالشافعي نادى لبوم مصابه	أوّاه ضاع مذاهبي وتفقّهي

« عجائب الآثار في التراجم والاخبار للجبرتي ج١ ، ص ١٩٦ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذا النظم ضعيف المعنى بعيد عن روح الشعر الفني المؤثر ركيك الاسلوب مهلهل التراكيب يبدو على ناظمه فقدانه الموهبة التعرية ففدانا كلبا ، ومحاولته مع ذلك أن ينظم لمرضي تطلعه فكلف نفسه فوق طاقتها .

ولم نقتصر ضعف هذا النعر على معانيه وأجبله وعاطفته والنفحه الشعرية فيه بل نعدّى ذلك الى التركيب أيضا فقد أهمل الناظم حرف العطف وتكرار حرف النداء قبل الشطر الثاني من البيت الاول ، ورصف الالفاظ في البيت الثاني بكيفية إقامة الوزن دون رابطة ظاهرة بينها وقد زاد اللام حشوا في البيت الرابع .

ومن أمثلة الشعر الضعيف كذلك قول الامير منجك :

ذهب الشّراع وضلّت المُلاح في جُنح ليل ما لذاك صَباحُ

وقولُ الشاهيني :

أدركتُ ما لا سوّلته شبيبتي وفعلتُ ما لا ظنّه شيطاني

« خلاصة الاثر للمحبي ، ج٤ ، ٤١٤ ، و ج١ ، ٢١٢ »

فالمُلاح جمع مَلاح لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد الا في صيغة الدعاء مثل : « لا أراك الله مكروها » .

ولكن الشاعرين لم يهتما بصحة الأداء النحوي واللغوي .

وتظهر الركاكة البالغة في بعض هذا الشعر . فهذا شاكر العمري الشاعر الناثر (ت ١١٩٤ هـ) يقول في مدح رجل من آل المرادي :

فكأن الزهور فيها استعارت
عَرْف خِيم الهُمام ، نجلِ المُرادي
وكأنّ الطيورَ تُملي علينا
وصف زاكي النجار سامي العِمادِ

« المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ١٨٣ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذكر من مشاكل هذا العهد الأدبية الرئيسية مشكلة الازدواج اللغوي فلغة الناس العامية في واد ولغة الشاعر الثقافية في واد آخر ولا يستطيع الجمهور أن يفهمها • وهذا الازدواج اللغوي لا يقتصر على المفردات ولو أنـه اقتصر عليها لكان الأمر سهلا ولكنه يتصل أيضا بقواعد النحو الاساسية وبالمادة اللغوية من حيث المفردات والتراكيب •

وهذه المشكلة بدأت مع بدايه اختلاط العرب بالاعاجم وتكوّن اللغة العامية شيئا فشيئا ، وأخذت تستفحل مع تقدم الزمن وتظهر آثارها في لغة الشعر وتراكيبه • وهذه الامثلة من الشعر الضعيف يقابلها أمثلة كثيرة من الشعر الذي يقارب أحيانا مرتبة الإبداع وأحيانا يكون جيّدا لا ينحدر بحيث يعدّ ساقطا • وسنرى بعض هذه الامثلة ونحن نتحدّث عن بعض موضوعات الشعر •

شعر النضال في العهد العثماني
ومنه المدح البطولي

نميّز في هذا العهد ثلاثة أنواع من المدح : الاول مدح السلاطين أو الوزراء أو القواد بمناسبة انتصاراتهم وما يلحق به من تهنئة ونحوها ، والثاني المديح النبوي وما يلحق به ، والثالث المديح الذاتي للعظماء والأصحاب والأقرباء :

أ ــ مدح السلاطين والوزراء والقواد بالانتصارات الحربية وشبهها :

لم نجعل هذا اللون من المدح أدب نضال وذلك لأنّه يتحدث عن انتصارات هجومية لا انتصارات دفاعية الغرض منها تحرير البلاد كما كانت الحال في الحروب الصليبية والمغولية • ولكن في هذا المدح لونا من أدب الحماسة والحديث عن الحروب ولذلك أفردناه وحده وألحقنا به بعض الشعر الذي يصوّر كفاح الشعب ضد والٍ ظالم يستبدّ به فيثور عليه ويحاربه وقد ينتصر عليه فيطرده ويضطر السلطان الى عزله ، وهذا الجزء الملحق هو في حقيقته أدب نضال شعبي يصوّر لنا أنّ الشعب لا تخمد فيه الحياة وأنّه مهما صبر على الظالمين فلا بدّ له يوما من أن يزيحهم أو يقضي عليهم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد ابتعد الشعب العربي عن شؤون الحرب والسياسة أو أُبعد ولكنّ أصالته الحربية حفظت فيه الإعجاب بالقوة والرغبة بالاتصاف بها ، وحفظت لشعرائه الإشادة بها والإعجاب بالأبطال ، ولم تمت فيه روح الحماسة ولكنها نامت أو تخدّرت .

يقولُ عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ ــ ٩٦٣ هـ) الشاعر المصري في وصف الحرب :

يعقد النقعُ فوقها سحُبا كالليل فيه السيوف أضحت نجوما
ومتى ما رأت سوادَ شياطـ ـنِ بُغاةِ الحروب عادت رُجوما

« الريحانة ، ج٢ ، ص ٦٢ »

والذي يعنينا من هذين البيتين هو بقاء الروح الحماسية في الشعب العربي وفي شعرائه . أما معناهما والصورتان فيهما وصياغتهما ففديمة تجري على الأسلوب التقليدي القديم وقد استمدّ الشاعر المعنى والصورتين من شعر بشّار ابن برد ومن القرآن .

استقى صورة الليل والنجوم في تشبيه غبار الحرب والسيوف من قول بشّار المشهور :

كأنّ غبارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

واقتبس صورة الشياطين والرجوم من الآية : « وجعلناها رجوما للشياطين » .

ومن مديح منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) للسلطان إبراهيم في ميميّته حين انتصر على أعدائه بحرا وبرا :

لو كنت أطمع بالمنام توهّما لسألت طيفَكَ أن يزور تكرما
حاشا صُدودكَ ان تُذمّ فإنّها تحلو لدي وان أسفّت علقما
عذّبْ فؤادي بالذي تختارُه لو كنتُ منسيّا تركتُ وانّما

• • • •

لو بثّ أشكو ظلمه لشكونه لملك هذا الدهر أسمى من سما

• • • •

قد جهّز السفنَ التي لو صادمت رضوى بأيسر لمحة لتهدّما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

• • • •

فهنا نرى نمطاً من مدح العظماء طمعاً في الجائزة • وهو يجري فيه على سنه القدماء من حيث البدء بالغزل ويتذلّل في غزله لحبيبه مظهرا الثبات على حبه ويحسن التخلّص الى السلطان التركي الممدوح ويمدحه بالسمو على جميع معاصريه وبتجهيزه الأسطول القوي لحرب أعدائه •

وقال ابن النقيب يمدح الصدر الاعظم أحمد كوبرلي باشا فاتح جزيرة كريت ويخلّد فتحه العظيم • وكانت هذه الجزيرة تابعة لجمهورية البندقيه فاستطاع هذا الباشا أن يستولي على عاصمتها « قنديه » بعد حصار سنتين واستسلام قائد حاميتها (مورو زفين) وهي قصيدة المدح الوحيدة في السلاطين في ديوانه .

ما آل برمك في ذرا بغداد يوم الفخار ولا بنو عباد
يوما بأوقعَ في النفوس مَفاخرا ممّا لكم من سؤدُدٍ وسَداد
حلّيتمُ جيدَ الزمان بدولة حلّت محلّ الروح في الاجساد
جلّ المهيمن كم أتاح لذا الورى منها جميلَ عوارفٍ وأياد
إيهٍ بعيشك يا زمانُ فلا تني أبدا بنشر مَحاسن الأمجاد
فتحوا بقنديةٍ مَعاقل أُرتجتْ قِدما على الأمراء والأجناد
وافى لها الصدرُ الرفيعُ جنابُه عَلَمُ الغزاة ومُكمِدُ الحساد
وله بدين الحقّ صولةُ ناصح دكّ الغزاةُ بها ذُرا الأطواد
تروي له الأيامُ طِيبَ مَفاخر ومآثرٍ عزّت على الأنداد
أنتم بني العلياء قطبُ مَدارها يوم الفَخار وموئلُ القصاد
أشْفعتمُ شرَف الجهاد بمقصِد أسنى ومسعاةٍ لخير مَفاد